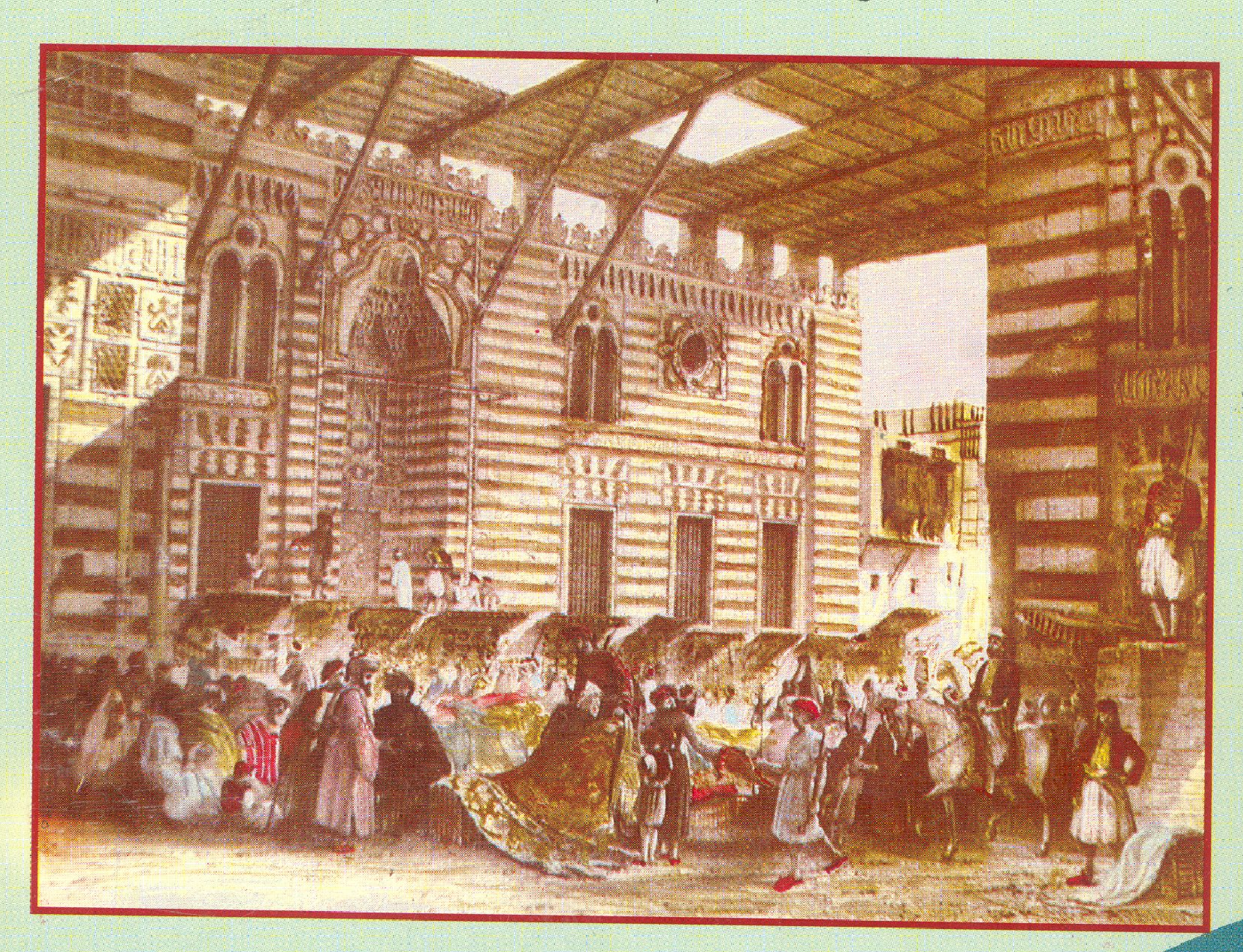
رواد الفن القصصي

محمد إبراهيم المويلحي

الجزء الثاني

علاج النفس
ومقالات لم تنشر في كتاب

المجلس الأعلى للثقافة



تقديم و تحرير : روجر آلن

الأعمال الكاملة 2

محمد إبراهيم المويلحى

المؤلفات الكاملة

الطبعة الأولى
المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة ٢٠٠٢

محمد إبراهيم المويلحى

المؤلفات الكاملة

رواد الفن القصصي

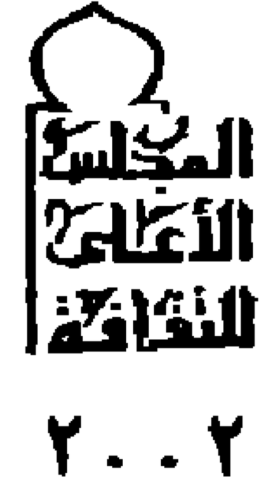
محمد إبراهيم المويلحي

المؤلفات الكاملة

الجزء الثاني

علاج النفس
ومقالات لم تنشر في كتاب

حررها وقدمها: روجر آلن



٢٠٠٢



علاج النفس

محمد إبراهيم المويلحى

وزارة المعارف العمومية

علاج النفس

لمنشئه

المرحوم السيد محمد بك المويلحي

---

(١) صورة غلاف الطبعة الأولى من كتاب «علاج النفس».



تمهيد

هذه رسالات في الأخلاق لعلاج النفس، وطيب العيش، حتى تتسنى لها سعادة الحياة، لم ننشئها من لدنَّا إنشاء، ولم نبتدعها من عندنا ابتداعاً، وإنما هي ضوء اقتبسناه من المطالعات في كتب الأوائل والأواخر من شرقيين وغربيين، وثمرة مجنية من مشاهدات الزمن وتجارب الأيام، مما جعلناه لنفسنا درساً في تقويم النفس، عسى أن نكون قد انتفعنا بها شيئاً قليلاً، والقليل في شفاء النفس كثير، ولا فضل لنا فيها إلا مثل فضل النحل، تجنى من أثمار الأشجار وأكمام الأزهار ما تحوله في بطنها عسلاً وشهداً فيه شفاء للصدور، ونحن نعرضها اليوم على أعين الناس، عسى أن ينتفعوا إن شاء الله منها بالشيء الكثير، وليس تقديمنا إياها لهم في منزلة أوامر الطبيب للمريض، بل في منزلة دواء مجرب من مريض إلى مريض، ومن عاجز مستفيد إلى مستفيد.

سهولة الفلسفة[1]

وقع للحكمة والفلسفة بيننا ما وقع لسائر العلوم، من الغموض والإبهام، والحشو والتعقيد، والزيادة والنقصان، واختفاء المتون تحت كثافة الشروح. فإذا جرى ذكر الفلسفة بين الناس يوماً، عدوها علماً من العلوم الزائدة، التى يشتغل بها بعض أفراد يختصون بها دون الناس عامة. ثم اختلفوا فى حقيقتها، فمنهم من يراها أصلا يتفرع عنها الإلحاد والزندقة، ومنهم من يعتبرها آلة للشك، وطريقة عوجاء سوفسطائية، يقلب المشتغلون بها الحق باطلاً والباطل حقا كما يشتهرون، بسعة احتيالهم فى صناعة البرهان.

والحقيقة أنها ليست فى شيء مما قرت عليه ظنون الناس وأوهامهم فيها، وأنها هى العلم الواضح، والنور الساطع الذى يهتدى به إلى سعادة الإنسان، ويرشد إلى جمال النظام فى العمران. وهو عام لا يختص بفئة دون فئة، وفى قدرة كل إنسان أن يتناوله، ويأخذ بأحكامه، وأن فى نفس كل امرئ قبساً من الفلسفة، وإن لم يكن فيلسوفاً، كما أن فى نفس كل إنسان خيالاً من الشعر، وإن لم يكن شاعراً.

وينقسم هذا العلم إلى ثلاثة علوم: علم الإلهيات، وعلم الطبيعيات والرياضيات وعلم الأخلاق.

أما علم الإلهيات فخاص بالدين، وأما علم الطبيعيات والرياضيات فهو علم شائع معروف، وأما علم الأخلاق فهو سياسة النفس ورياضتها على الفضيلة، وهو أهم الأقسام لتوقف سعادة الإنسان عليه فى حياته.

ويغنينا عن الإسهاب فى أن أهم ما يطلبه الإنسان من الفلسفة هو الأخذ بفضائل الأخلاق ومحاسنها والتخلى عن رذائلها ومساوئها، وأن نذكر شيئاً من سيرة شيخ الفلاسفة «سقراط» الذى بلغ درجات الكمال الإنسانى بسياسة نفسه ورياضتها على الفضائل.

---

(1) م ش ٠-١٥-١٥١ / ٢٦، ١٩ أبريل ١٩٠١.

كان سقراط رجلاً نحاتاً للتماثيل فى أول عمره، فبرع فى صناعته وفاق فيها الأقران ولما بلغ الثلاثين من عمره أحس من نفسه ميلاً إلى البحث عن الحقيقة ينشدها أنَّى وجدها، وكفل له بعض أغنياء «أثينا» ما يكفيه مؤونة السعى وراء رزقه، فانقطع للدرس والبحث حتى بلغ درجة عالية، أرته أن مباحث الفلسفة بين العلماء فى زمانه، لا تكفى تهذيب النفس وسعادة الحياة، لانحصارها فى أوليات العلل والأسباب، فصرف اجتهاده إلى أن ينزل بها من المجردات إلى الموجودات التى يسهل على الإنسان تناولها بحكم الطبيعة، فقصر همه على علم الأخلاق الذى يرشد الناس إلى سعادتهم فى معيشتهم، بوقوفهم عند حدود الفطرة الغريزية، ومعرفة الحقائق، واستفظاع الرذائل، واستبشاع الأباطيل والأضاليل، وكف الأذى ومقت الظلم، وحسن الطاعة للشرائع الوطنية، واحترام واجبات الإنسانية، ورياضة النفس على الصبر والتجلد، وكبح جماحها عن الاسترسال فى الشهوات، والقناعة بالكفاف، دون التهالك على الثروة والغنى، مع الشجاعة والإقدام على ما يدفع المنكر والمكروه عنها وعن الناس.

وكان القول عنده فى الفلسفة مقروناً بالعمل وتأدية الواجب، بخلاف الباحثين من أهل زمانه فى الفلسفة، حتى إنه ترك دروسه ثلاث مرات ودخل جندياً فى صف الجند، لدفع العدو عن بلاده، فكان محل الإعجاب لما أظهره من الشجاعة، ومما يذكر له فى تلك المواقع التى شهدها أنه رأى أحد الجنود فى يد الأعداء مثخناً بالجراح، فقاتل عنه حتى انتزعه منهم، ولم يكتف بذلك، بل نزع عن صدره علامة الشرف التى نالها لحسن بلائه، وحلى بها صدر الجريح ورآه أولى بها منه، ومن مواقفه أيضاً أنه بقى يقاتل حتى لم يبق من جيشه كله فى ميدان القتال غيره مع القائد، ووجد فى ساحة الميدان أحد القواد ساقطاً عن جواده فحمله على كتفه حتى وضعه فى المأمن.

تلك درجته فى الصناعة، وهذه رتبه فى الشجاعة، وإليك منزلته فى الثبات للدفاع عن الحق، فمن ذلك أنه لما صار عضواً بالانتخاب فى مجلس الشيوخ، ذهب مع أعضاء ذلك المجلس لرياسة اجتماع عام من أهل أثينا، عقدوه لمحاكمة بعض القواد الذين انتصروا فى موقعة بحرية انتصاراً مذكوراً، ثم حالت العاصفة بينهم وبين دفن موتاهم، وكانت شريعة أثينا تقضى بحكم الإعدام على كل من يغفل دفن الموتى، فأرادوا تطبيق هذا الحكم على هذه الحادثة فقام سقراط للأخذ بناصرهم، وأخذ يدافع عنهم ويظهر ما

فى هذا التطبيق من الخطأ الفاحش والظلم المبين، وبلغ من تهور العامة وتهوسهم فى الإصرار على معاقبة أولئك القواد بالإعدام، أنهم طلبوا أن يسرى هذا الحكم على كل من يعارض فى تنفيذ ذلك القانون، فدفعت سقراط شجاعته إلى الوقوف موقف المعارضة، وحيداً فى هذا الملتحم، غير مبال بصياح العامة ولا مكترث بوعيدهم، وظل يناضل وينادى بفسوة هذا الحكم الذى يحط بقدر من يعمل به، ويلبسه ثوب الخزى والعار، ويسمه بميسم نكران الجميل لمن كانوا سبباً فى إنقاذ الوطن، ورد هجمات العدو عنه.

هذا مثال القاضى العادل فى سقراط. ودونك مثال الرجل الحر بين أهل وطنه: تغلب أهل إسبارطة على أهل أثينا، وأسقطوا فيهم حكومة الشورى، وأقاموا لهم مكانها حكومة استبداد مؤلفة من ثلاثين حاكماً، انتخبوهم من بين المترفين من أهل أثينا، فكان من بوادر أعمالهم أن حضروا على سقراط درسه فى تربية الشبان، فلم يثن ذلك من عزمه بل قام فى وجه وعيدهم غير مبال به، واستمر على تحريض الأمة لاسترداد حريتها وعزل هؤلاء الظلمة، ولم يرعه ما راعها من إطلاق يد الظلم فيها بالقتل والفتك، حتى ثارت بفضل ثباته على أولئك الحكام، فقتلت منهم من قتلت وطردت من طردت.

وكان الرجل فى أوقات تخليه عن الاشتغال بالمسائل العامة، يعيش بين الناس معيشة فطرية، قاصراً همه على تعليم الشبان من أهل أثينا، ويرى أنه يخدم وطنه أحسن خدمة بحسن تهذيبهم وتربيتهم، وقد أخذ على نفسه أن يهدم ما رسخ فى الأذهان، من الأضاليل والأباطيل التى تلحق العار بالنوع الإنسانى، فما كان أجلّ منظره عندما كنت تراه يخطب فى الناس منتقداً أعمالهم، مقبحا أفعالهم داعياً إياهم إلى التعلق بالفضيلة من طريق الوقوف على الحقائق، وهو رجل فرد بين أمة ضالة، لا جاه له ولا مال، غير متطلع لأطماع، ولا متطلب لدنيا، وعاش زمانه لا هم له إلا الوصول إلى هذا الغرض الجليل، يسير فيه تارة بالحدة، وتارة باللين، على حسب ما يمليه عليه حسن النظر وصواب الرأى فى المنفعة العامة، ولم يكن كأمثاله من العلماء الذين يتخذون لدروسهم مكاناً خاصاً، ووقتاً معيناً، بل كان يلقى على الناس دروس الفلسفة والحكمة فى الطرق المسلوكة والأسواق العامة، وكان ينتهز كل فرصة لإرشاد القاضى فى وظيفته، والحاكم فى منصبه، والصانع فى حرفته، والزارع فى حراثته، وينزلهم منه عند النصح والإرشاد منزلة الأبناء والإخوة فى الحنو والإشفاق، لا فى منزلة الطلبة فى خضوعهم للاستفادة

والتعلم، وكان يستدرجهم فى الحديث ويستجلبهم، فلا يشعرون إلا وقد بسطوا له ما تكنه صدورهم من خفايا سيرتهم، ثم يتلقون عنه ما يغرس فيهم من الاعتقاد، بأن سعادة الحياة بين كل الطبقات لا تتم لأحد إلا بالعمل الصالح فى نفسه والعمل الصالح بين أهله وصحبه، والعمل الصالح بين أبناء جنسه. ومما كان يكرره على أسماع العامة فى مواقفه بينهم قوله لهم: اعلموا أنكم إذا رضيتم أن تكونوا عبيداً للشهوات، فلا سبيل لكم إلى الفضيلة التى تصعد بكم إلى معارج السعادة، ولا تأثير لصوت العقل والحكمة إلا فى النفوس الطاهرة التى تسعى جهدها للتخلص من قيود الشهوات، ولا وصول إلى ذلك إلا بإطراح فضول العيش بما لا حاجة إليه فى الفطرة الطبيعية، فإذا بلغتم ذلك من أنفسكم بطول التفكر والتمرن انجلت عنكم ظلمات الجهل، وانقشعت سحب الأضاليل، وليست قوة الشهوات هى التى تتغلب على النفس ولكن الجهل هو الذى يضعف النفوس ويذلها ويغلها فى تلك القيود، فعليكم بالتغلب على سلطان الشهوات الذى يسلطه عليكم الوهم والجهل، لتخرجوا من الظلمات إلى النور، وتذوقوا حلاوة الفضيلة التى بها تمام السعادة.

ثم انتهى أمر سقراط إلى ما ينتهى إليه كل عالم فاضل بين نصراء الجهل وأهل الأهواء والأغراض، من الحسد له، والحقد عليه، والسعاية به ليتخلصوا من عواقب نصحه وإرشاده للناس وكشف الضلالات عن أبصارهم، حتى يبقوهم على ما هم فيه من الجهالات، ليسهل عليهم التسلط فيهم، وحفظ مكانتهم لديهم، وولوع ذوى الجهل بذوى الفضل قديم فى العالم، فكادوا له ما كادوا، وأتمروا به فأشاعوا عنه ما يستنكر لديهم من الأقوال، ويستقبح من الأفعال، حتى أثاروا عليه طبقات الجهلاء، فأعلنوا كراهته وبغضه، وطلبوا محاكمته. فتقدم أحد المفسدين منهم إلى مجلس الشيوخ، وادعى عليه أنه ينكر دينهم، ولا يؤمن بآلهتهم، وأنه يفسد عقول الشبان والفتيان، ويبطل عقائدهم بما يلقيه عليهم من الأقوال الباطلة، والأفكار المضللة، فانخدع مجلس الشيوخ بهذه المفتريات، وخاف أعضاؤه على أنفسهم من ثوار العامة. فطاوعوهم وحكموا عليه بالموت بتناول السم. وهنا موقف الإعجاز فى مقابلته للحكم بالرضا والقبول، وقد عرض عليه بعض تلاميذه أن يجدوا له مخلصاً، ويعدوا له أسباب الفرار من هذا العقاب الجائر والظلم الفاضح، فزجرهم وقال لهم: لست أرضى أن أكون مثالاً للناس فى الخروج على حكم القانون، ومن ارتضى أن يعيش فى بلد فليمتثل لما تقضى به شريعته. واستمر فى

تدريسه كأحسن ما كان حتى حان وقت التنفيذ. وكان يلقى على تلاميذه فى ساعته الأخيرة مقالته فى خلود النفس. وتناول السم بيده وهو ساكن الجوارح، مطمئن النفس، باسم الثغر.

وكان مثل سقراط فى فلسفته كمثل ضوء الشمس الساطع فى هذا الوجود، فلما مات تحلل هذا الضوء إلى طيف فأخذ كل تلميذ من تلاميذه بلون منه. فكلهم منه مقتبس وإليه راجع، وإن اختلفوا اختلاف تلك الألوان بتفرقهم، فإنهم يمتزجون امتزاجها بتجمعهم.

فذهب أفلاطون بفلسفته إلى القول بخلود النفس، وسما بها إلى عالم المجردات، ورأى أن سعادة النفس قائمة على الاتصال بذلك العالم العلوى.

وقصر «انتستين» فلسفته على علم الأخلاق، وجعل سعادة الحياة فى احتقار الجاه والمال، ونبذ الشهوات، والعمل بالفضيلة. ولما كانت الغاية عنده من هذا الوجود بلوغ سعادة النفس، فقد قرر أن الفضيلة وحدها هى الطريق لتلك الغاية، وأن ما كان من أفعالنا خارجاً عنها فهو إما ضار وإما غير نافع. وذهب «اريستيب» إلى أن اللذة هى الغاية المقصودة من الحياة، وأن شعور الإنسان هو المعيار الذى تقاس به اللذات، فيترك الإنسان أدناها لأعلاها، وإذا ظن أنه انحرف عن مذهب أستاذه سقراط بهذا التحديد، فإنه عاد فقيده: بأنه لابد للإنسان أن يجعل من نفسه سلطاناً له على لذته، ولا وصول لذلك إلا بإنماء القوى العقلية بالتربية.

ثم جاء «أرسطو» وهو تلميذ أفلاطون، فتوسع فى مذهب أستاذه، وجعل أساس فلسفته البحث عن العلل والمعلولات، وسمى كل بحث منها علمًا، ليرجع بذلك كله إلى علة العلل، فجمع العلوم البشرية فى دائرة فلسفته، فاستوعب بتآليفه التاريخ الفلسفى والمنطق والإلهيات، والطبيعيات، وتركيب الأجسام والنباتات والأخلاق والسياسة والآثار القديمة، والتاريخ الأدبى واللغات، والنحو والبيان والشعر وفلسفة الفنون، وقد جعل لكل نوع من هذه الأنواع روابط وقواعد علمية. ويقال إنه لم يضع كل ذلك وحده بل أعانه عليه قوم آخرون فى عهد "الإسكندر" تلميذه لاتساع جاهه وكثرة ماله، والسعادة عنده تنحصر فى السعى والعمل على مقتضى الفضيلة، وارتقاء النفس إلى العلويات.

ثم جاء "ديوجين" وهو تلميذ "انتستين" المتقدم ذكره، وذهب إلى أن الفلسفة كلها في الزهد والحرمان الاختياري، وفي ازدراء ما اصطلح عليه الناس من عادات وآداب واصطلاح، وقد دعا الناس تابعيه بالكلابيين، لأنهم كانوا يهرولون وراء الناس بذكر معايبهم ونقائصهم، ومجابهتهم بالتقريع والتعبير. وقد جعل "ديوجين" نفسه لوحاً يقرأ الناس فيه فلسفته حاضرة، فكان يمشي بينهم عاري البدن حاسر الرأس، مكتفيا بالخشن من القوت، يتوسد في نومه عتب الهياكل. وقد وصفه "أفلاطون" فقال عنه: "إنه سقراط يهذي ويهتر"، فإن سلطانه على نفسه ورياضتها على احتمال المشاق، وتمويتها على الحرمان الاختياري، وتخلصه من ربقة الشهوات، كان نصيبه الأوفر من ميراث "سقراط" وقاعدة فلسفته من أجل القواعد وهي: أنه لا ملك للإنسان إلا ما امتلكه في نفسه، لا ما امتلكته يده، لأن ما يملكه الإنسان في الحقيقة هو ما كان في نفسه لا في يده، وما عدا ذلك فهو في يد الدهر. وكان يقول في كلامه: "إني لأسمع صوت الدهر يناديني: ليس بين المخلوقات كلها من هو خارج عن سلطاني إلا هذا الكلب العقور"، يعني نفسه. ووقع مرة أسيراً في يد الأعداء، فعرضوه للبيع في السوق، فكان إذا سأله من يساومهم فيه: "ماذا تحسن من عمل" قال "آمر الناس وأنهاهم". ولمح في تلك السوق شريفاً من أشراف القوم في زينته وخيلائه، فقال: "بيعوني من هذا فإني أراه يحتاج إلى سيد" وكان البائع ينادي عليه في السوق "من يشتري هذا العبد". وهو يقول: "من يشتري سيده" ثم قال للذي اشتراه "استمع لما آمرك به منذ اليوم وتقبله بالطاعة".

ثم جاء من بعدهم "أبيقور"، فجعل لُباب الفلسفة في علم الأخلاق، وأن الغرض الوحيد منها هو البحث عن الطريقة التي تجعل الإنسان سعيداً في حياته، ولم ينظر إلى بقية أقسام الفلسفة إلا من هذا الجانب، ونبذ ما وضعه أرسطو من القواعد، وما حدده من الحدود، وربطه من العلوم بالمنطق. ورأى أنه يمكن للإنسان أن يهتدي بغير هذه القواعد إلى معرفة الحقيقة كما هي، ووضع في ذلك قانونه المشهور. وملاك السعادة عنده اللذة. وهو يقول "إن من تمعن في أطوار الحيوانات والأطفال، علم أن الطبيعة لم تجعل لنا حداً نسعى وراءه سوى تلك اللذة، وهي اللذة الجسمانية المحسوسة". ويقول أيضاً "إنه لا يعرف للسعادة وجوداً في غير تلك اللذة". ولكنه وضع فرقاً بين اللذة في الحركة واللذة في السكون. وتعريف هذه اللذة عنده أنها ليست في الانتقال من حالة التعب إلى الراحة،

بل هى حالة البقاء على الراحة، يعنى بقاء الجسم فى مركز التوازن. وبعبارة أخرى هى فى الراحة التى يجدها الإنسان عقب قضاء رغبته، أو هى فقدان الألم بأنواعه، أو هى حالة سكون النفس لا حاجة بها إلى شىء، وهو لاينكر وجود لذة للروح بجانب لذة الجسم، ولكن لا فصل عنده بينهما، فإن لذة الروح ليست إلا لذة الجسم التى صورناها لك، مرسومة فى الحافظة، أو مارة فى الخيال، أو مرجوة فى المستقبل، وإن مدة الزمن هى الفارق المعنوى بينهما، وعلى هذا تكون اللذة شيئاً ثابتاً موجوداً تحت تصرف الروح.

ولكن ما هو طريق الوصول إلى هذه اللذة المزدوجة، وهذه السعادة الدنيوية؟ يقول "أبيقور": إن الطبيعة بفضلها وعطفها علينا قد وضعت فى أيدينا كل الوسائل، ومهدت لنا كل الطرق، للوصول إلى تلك السعادة. وجميع الأمر كله فى هذا الطريق أن نميز بين الرغبات التى تدور فى صدورنا، فنعرف ما هو طبيعى ضرورى مثل الأكل والشرب، وما هو طبيعى غير ضرورى كالرغبة فى أصناف الأطعمة وألوانها، وما هو ليس بطبيعى ولا بضرورى مثل فضول العيش وكمالياته. فإذا عالجنا النفس للتخلص من أسر الرغبات فى القسمين الآخرين، سهل علينا الوصول إلى منتهى طريق السعادة؛ لأن الجوع والعطش هما الشيئان الطبيعيان دون غيرهما. ومن ذا الذى يعجز أن يجد كسرة من الخبز أو جرعة من الماء؟ فالقناعة والزهد والتقشف وراحة البال هى الغاية التى تنتهى إليها فلسفة "أبيقور"، وهى المؤسسة فى ظاهر الأمر على اللذة. ويشهد له أعداؤه أنفسهم بأنه عاش هذه العيشة مطبّقاً أقواله على أفعاله. ولكن جاء بعده من تلاميذه من خلط فيها وانحرف بها فلسفة "أريستيب"، بما جعل الناس يسمونها "الفلسفة الشهوانية".

هذه نتف من أصول الفلسفة ولُبابها فى بساطتها ووضوحها، دون التعقيد والإبهام والإغلاق وشوائب الجدل التى عمد إليها المشتغلون بعلوم الفلسفة فيما بعد، حتى طرحوا الفلسفة جانباً، واقتصر بعضهم فيها على علم المنطق، واعتبروه أساساً لها، مع أنه آلة من بعض آلاتها لميزان القول والفكر، وغايته تمحيص التعبير من الخطأ، أشبه شىء بآلة النحو فى اللغة، وقسموه خمسة أقسام: قسم يؤدى إلى الحق والصدق فى سائر أحواله ويسمى برهاناً، وهو صناعة اليقين، وقسم يؤدى فى أكثر أحواله إلى الصدق وقد يكذب يسيراً ويسمى جدلاً، وهو صناعة الظنون، وقسم يؤدى إلى الحق مرة وإلى الباطل أخرى ويسمى خطابة، وهو صناعة الإقناع، وقسم يؤدى فى حالاته إلى الكذب، وقد يصدق قليلاً

ويسمى سفسطة، وهو صناعة المغالطة، وقسم يؤدى إلى الباطل المحض ويسمى شعرياً، وهو صناعة الخيال.

فهذا العلم الذى يشتغلون به من الفلسفة لا يفيد الغرض المقصود منها، وهو تثقيف الأخلاق، وتهذيب الطباع، والسير على مقتضى الفضيلة، ليصل الإنسان بذلك إلى سعادة الحياة وسعادة الممات. وما نفع الإنسان من تلك القياسات والمغالطات فى شفاء النفس من رذائلها وتحليها بفضائلها؟ ولعمرى لو أنك جئت بألف عالم من علماء المنطق، وجئت أمامهم مثلاً بهذا الذى يعضه الفقر بنابه، وهذا الذى يقدم للقتل بين النطع والسيف، وهذا الذى يشكو ويئن، وهو تحت أثقال الذهب التى ابتزها بطرق الخيانة والنذالة، واكتنزها بحبائل الغش والخداع، وهذا الذى يهاب الخطوب ويفزع من الكوارث، وهذا الذى أضناه الملل والسأم، وهو فى سعة من جاهه وماله، وهذا المريض، وهذا الجريح، وهذا الأسير، وتلك الثكلى، ثم أخذوا ينثرون عليهم ما فى كتبهم من الجدل والسفسطة التى قضوا العمر فى طلابها، وينفقون ما فى صدورهم من الأقيسة والقضايا، أكان ذلك ينفعهم فى شىء؟ أكان يشفيهم من أدوائهم، ويسكن من أوجاعهم، فينقلب البائس وقد انفرج بؤسه، والحزين وقد سرى عنه حزنه، والمحتاج وقد خف عليه فقره، والمعذّب وقد قويت عزيمته على أحتماله عذابه، والخائف وقد ذهب عنه روعه، والغنى وقد علم أن الغنى غنى النفس لا غنى المال؟ وماذا يفيد الناس فى هذا الموقف أقوالهم المشهورة، وقضاياهم العقيمة فى منطقهم مثل قولهم: لو أردنا أن نقيم ألف دليل على أن هذه الهضبة من الذهب ما عز علينا. وماذا يكسب الناس من هذه المغالطات التى يرددونها فى كتبهم مثل قولهم: "لا يودع السر عند الرجل النائم، بل يودع عند الرجل الحازم، والحازم يقظ، فالحازم إذاً لا ينام"؟ أو كقولهم فى هذه القضية أيضًا: "كل ما لم يكن قد ضاع منك فهو معك. وأنت لم يضع لك قرون فعندك إذا قرون»؟. ودعك من قولهم فى الغناء: «لا تسمع، فتطرب، فتجود، فتفتقر، فتغتم، فتعتل، فتموت».

وما أغنى أولئك المصابين فى أنفسهم عن هؤلاء الذين يشتغلون بهذا اللغو الباطل من الفلسفة، وما أحوجهم إلى فيلسوف واحد يعلم حقيقة الفلسفة وبساطتها، فيهديهم إلى ما يهذب نفوسهم بالفضائل، وينقيها من الرذائل، ويفيض عليهم من أشعة الحكمة والموعظة الحسنة ما يقشع عنهم ظلمات ما هم فيه من الأحزان والأكدار، ويكشف لهم عن

حقائق الأشياء فى هذه الحياة، ويبين لهم ما هو الضرورى من العيش، وما هى الفضول والزوائد التى أورثت الإنسان أنواع البلاء وأفانين الشقاء، وذلك هو لباب الفلسفة، وذلك هو علم الأخلاق، وإنه لقريب التناول سهل المأخذ لا يستعصى على الفهوم، ولا تكد له القرائح، بل هو فى سهولة قصة من القصص، أو حكاية من الحكايات، لا يتعذر على أى إنسان فهمه، لأنه يتناول أدوار حياته من أول عمره إلى منتهاه، ويرشده إلى الفضيلة، التى لا يمكن بغيرها أن يعيش الإنسان سعيداً ويموت سعيداً.

وهذه الفضيلة تقوم على أربع دعائم: الأولى: العقل، وهو التمييز والروية وصحة الحكم، الثانية: العفة، وهى الورع وضبط النفس عن الشهوات المؤذية الفانية؛ والثالثة: الشجاعة، وهى الإقدام والثبات عند نزول المكروه، والرابعة العدالة، أى الاستقامة، وهى صحة الأفعال ووضعها فى مواضعها اللائقة بها.

والفضيلة تنحصر بالإجمال فيما يجب على الإنسان للإنسان، وفى قيمة الأشياء فى حد ذاتها، وفى تأثير الأشياء فى النفس وإحساس النفس بها، وفيما يصدر عنها من الأعمال، وفى أن نعلم المعنى المسمى خيراً، وهو الأمر المرغوب فيه لذاته، والمعنى المسمى شراً وهو المرغوب عنه لذاته، والمعنى المسمى نافعاً، وهو السبب المؤدى إلى الخير، والمعنى المسمى ضاراً، وهو السبب المؤدى إلى الشر.

وكل إنسان فى الوجود قادر على مزاولة الفضيلة والسير فى طريقها. وقد وضع الله سبحانه وتعالى بذورها فى فطرة الإنسان وغرس جذورها فى الصدر، لتنمو فيها بالممارسة. ولكن من سوء حظ الإنسان أنه انحرف عن الطبيعة، وتسلل من الغريزة، واستسلم للأهواء الباطلة والأوهام الفاسدة، فغطت على بذور تلك الفضيلة، ونمت مكانها بذور الرذيلة.

وجملة القول فى هذا المجال المتسع، أن علم الأخلاق هو المقصود بالذات من الفلسفة، وأن أصوله قديمة فى العالم اهتدى إليها منذ الزمن الأول فلاسفة الهند، وفلاسفة الصين، وفلاسفة اليونان، وفلاسفة الرومان. وإذا كنا خصصنا بالذكر فى كلامنا عن الفلسفة فلاسفة اليونان، فلأنهم المصدر الذى ارتوى منه فلاسفة الرومان، ومن بعدهم فلاسفة أوروبا فى العصور المتأخرة إلى يومنا هذا، فكلهم عيال عليهم، ولم

يتفوق العلماء الأوربيون، وإن كانوا تفوقوا في كل شيء، على علماء الأخلاق في الأزمان السابقة. غاية الأمر أنهم فرَّعوا على تلك الأصول، وشرحوا وفسروا، وأطنبوا وأسهبوا، ولكنهم لم يأتوا بأكثر من الطراز على الثواب والهداب على الستر، وكلهم إجماع على أن محاسن الأخلاق لا تأتي إلا من طريق الفضيلة التي بينا أركانها، وأن سعادة الحياة لا تنال إلا برياضة النفس عليها، حتى تصير فيها ملكة، وأن كل إنسان قادر على مباشرتها والسير في طريقها، وأن بذورها كامنة في الصدور بفطرة الخالق التي فطر الناس عليها، لتنمو فيها بالممارسة. ولكن من سوء حظ الإنسان أنه تزحزح عنها، واشتغل بالباطل في اجتماعه، وغفل عن حقيقة سعادته، وضل طريقها، ومكث يبحث عنها من غير وجوهها، وينشدها ولا يدركها، إذ خرجت النفوس عن أطوارها، وتسللت من غرائزها، فأصيبت بالأمراض المختلفة: من الأهواء والأطماع والآمال والأماني، فكان لابد للإنسان في معالجة نفسه أن يرتد إلى حكم الطبيعة، وأن يبحث ويفكر ويحكم عقله ويشحذ إرادته، ويغلب القوة الحاكمة على القوة الواهمة، ويكشف بنور الحقيقة ظلمات الجهل والوهم، ويروض نفسه على أحكام الفضيلة، فلا يشحن نفسه بالرغبات، ولا يضعفها بالرهبات، ولا يسلمها للهموم والغموم، ولا يتركها للجزع والفزع، ولا يعرضها للوساوس والهواجس، وأن يعودها ألا تعتبر جميع المطالب الطويلة العريضة التي تشغل أطماع الناس في هذا العمر القصير إلا أمورا تافهة، لا يعتني بها، ولا يؤبه لها، ولا يؤثر فيه حرمانه إياها. وما أحقر أمور الدنيا، وأصغرها في جانب حياة الخلود. كما أنه يوطد نفسه ويؤهلها لمصارعة الخطوب ومنازلة النوازل، فلا يصيبه شئ منها إلا وقد أعد له عدته وقدر وقوعه، حتى لا تفاجئه الأيام بأمر جديد لم يكن في حسبانه، ولا تباغته بحادث إلا وقد اتخذ لنفسه موئلا من الحكمة يأوى إليه، ويتدرع بحصنه، وأن يكون هو هو على حال واحدة وموقف واحد أمام صروف الدهر وبلائه، أيام هنائه وصفائه، وأن يكون هادئ النفس ساكن البال على كل حال، وأن يكون هو المعني بقول الشاعر لممدوحه:

وحالات الزمان عليك شتى ... وحالك واحد في كل حال

فالذي يتعين علينا إذا، أن نرفع عن النفس أوهامها وأباطيلها، وأن نبين لها حقائق الأشياء، وأن نرفع عنها غشاء الأهواء، وندفع عنها عدوان الرغبات والشهوات، ونكشف عن عوامل الرذيلة التي عارضت نمو الفضيلة، فنشرح أسواءها وأدواءها، ونصور

بشاعتها وفظاعتها، ونبسط أضرارها وشرورها، حتى تعافها النفس وتستنكف منها وتبتعد عنها وتنفر منها، فتطهر من الأدناس والأرجاس، وتبدو بذور الفضيلة، ويربو غرسها. وهذه الطريقة في رأينا أدخل على النفس وأفعل بها من طريقة مدح الفضيلة وتزيينها وتبيين محارسنها، كما جرى عليه السلف. فلو كررت على الإنسان في كل يوم أن الخير أحسن من الشر، والحلم أفضل من الغضب، والصدق خير من الكذب، لأقرك على ذلك كله. ولكن طول تكرار هذه الألفاظ لا يترك في نفسه إلا صورها مجردة دون معانيها، مثل ألفاظ الوعظ في خطب المنابر، يسمعها ولا يدرك العمل بها. كان لي صاحب لا يكذب أبدا فسألته يوما كيف راض نفسه على ذلك، وقل من لا يكذب في عصرنا، فقال: «ما رضتها وما عالجتها، ولكنني عاشرت في صباي كذوبين يبتكران الكذب ويخترعانه، فكنت أشاهد من تكذيب الناس لهما وسوء سمعتهما، وما يحل بهما من الخجل والخزي، وما يفعل بهما النسيان، فيفضح الكذب، وما يصيبهما من الضرر إن قالا صدقا لأنهما عرفا بالكذب، وهان أمرهما على أصحابهما فكانوا ينفضون عنهما أو يتشاغلون، فشاهدت من سوء أثره وقبح أمره ما كر٢٠هنى في الكذب طول الحياة».

وقد آن أن نبدأ ببعض الفصول في هذا الباب. ونسأل الله الهداية في المبدأ والمآب.

الغضب[1]

اعلم– وفقنا الله وإياك إلى الرشد– أن ما نسميه بصروف الدهر، وإحن الزمن، ومحن الحياة، ومصائب الدنيا، وأكدار العيش، وسوء الحظ، يتولد كله من رذيلة الغضب. ويقول الفرنسيون عند كل حادثه: «فتش عن المرأة»، فكذلك إذا رأيت بلية من البلايا ونازلة من النوازل، فابحث فيها تجد أصلها من بذور الغضب.

فالغضب أبشع أمراض النفس، كما أن الجذام أبشع أمراض الجسم، والغضبان يشترك مع المجذوم فى تشويه الوجه، وطمس معالم حسنه، ويزيد عليه كونه مصدر النوائب ومنبع الرزايا، وفى الحديث الشريف: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»، والغضبان أسرع من الأسد بادرة فى أنواع الشرور وأسباب المهالك.

وقد عرف أحد العقلاء الغضب فقال: «الغضب جنون متقطع»، وإنك لو نظرت إلى الغضبان وهو فى اختلاط عقله، واختباط جسمه، وتقلص شفته، وبحة صوته، وازدحام أنفاسه، واحتدام وجهه، وانتفاخ أوداجه، وارتعاش يده، واضطراب عصبه، وجففان قلبه، وغليان دمه، وقذف فمه بالزبد وعينه بالشرر، لحكمت حكمًا قاطعاً بأن المجنون أسلم عقبى وأقرب منه للحسنى، ولو أبصر الغضبان وجهه فى المرآة، وهو على هذه الصورة المنكرة التى تقذى العيون بالنظر إليها، لاستحيا من نفسه، ولخجل ممن يراه، وقد دخل رجل على «أفلاطون» الفيلسوف فرآه منحنياً وبيده سوط وأمامه خادم كان شرع فى تأديبه، فلما أدرك الحالة التى يكون عليها الغضبان فى غضبه أمسك عن ضرب الغلام، وكظم غيظه، وبقى منحنياً ذلك الانحناء، فسأله الرجل عن هذه الوقفة، فقال له الحكيم: «أردت أن أضرب هذا الخادم، فلما رأيت نفسى على هذه الهيئة قصدت تأديبها بالبقاء عليها حتى تثوب عن غيها. وقال النبى عليه الصلاة والسلام «ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب»، ولو جعلت لأحد المترفهين المتأنقين الذين يقيسون خطاهم بمقياس، ويتبسمون بمقدار، ويلتفتون بميزان، ضيعة من الضياع على

(1) م ش ٢٠-٤٠، ١٥/ سبتمبر ١٨٩٨، ١٩ يناير ١٨٩٩

أن يقطب وجهه، ويقلص شفتيه، وينكر صوته ويتابع زفراته، ويشرق بريقه، لاستنكف لنفسه أن يفعله، ولكن أغضبه بدانق تضحك من هذه الصورة أياماً.

وكم فتح الغضب أبواباً للسجن، ونصب أعواداً للصلب، وفتل أحبالاً للشنق، وبسط النِّطع، وسل السيف، وأضرم ناراً للحروب، وقد يستر العقل آفات النفس ورذائلها إلا الغضب فإنه يستر العقل، ولا يتغلب على ظهوره شيء، بل تراه يشق الجسم، ويبرز منه شاكي السلاح، فيقطع أواصر القربى، ويفصم عرا الأبوة والبنوة، بل عرا الإمامة والنبوة.

وللغضب درجات يصعد إليها. واحدة إثر أخرى حتى يصعق صاحبه، ويذهب برشده ولبه، ويطير بصوابه، ويجعل جسمه جمرة تضطرم، وجذوة تشتعل.

والغضب كالحريق، أوله شرارة، ثم يكون منه ما يهول سماعه، ويغول منظره، ولهذا يمكن العاقل بادئ الأمر أن يطفئ تلك الشرارة، ولكن يتعذر عليه أن يطفئ نار الغضب إذا هي شبت واستعرت.

وأخف الغضب ما انتشر على اللسان بالشتم والسب والصياح، وأشده ما يبقى محصوراً في الصدر، يزاحم بعضه بعضاً، فلا يلبث أن ينفجر بالتهور والجنون، انفجار المرجل انحصر فيه البخار.

وقد عرف «أرسطو» الغضب فقال. «هو إرادة مقابلة الشر بالشر»، ولكنا نرى كثيراً من الناس ينشأ غضبهم عن تصور نية الشر من غيرهم دون وقوعه بالفعل، وقد يفرطون فيغضبون على غيرهم، لمجرد التوهم بجواز توقع الشر منهم، ومن المبالغات في هذا الباب أن أحد أمراء اليونان القدماء بلغه من بعض حاشيته، أن أحدهم رأى في المنام أنه يكيد له مكيدة، ويدبر خروجاً عليه، فغضب وأمر بقتله في الحال، وقال: «لو لم يجل في خاطره هذا العمل ما رأى في المنام رؤياه»، وهنا يجب أن ننظر إلى الغضب: هل هو من لوازم الطبيعة البشرية؟ وهل يستعان به في بعض الأمور؟ فلبيان الغرض الأول نقول: إن الإنسان من بين سائر الحيوانات أطبعها على اللطف، وأميلها إلى الرفق، ما دام باقياً على فطرته وغريزته، ومن كانت هذه حقيقته فلا قسوة فيه، والغضب قسوة. ولا نرى محبة أكمل من محبة الإنسان للإنسان، والعداوة كل العداوة في الغضب، والإنسان حريص على السعي في بقاء نوعه، وفناؤه في الغضب، والإنسان ميال بطبعه إلى التجمع،

والغضب يشقه عن الجماعة، والإنسان يرغب في نفع غيره، حتى يكاد يرمي بنفسه في الأخطار لخلاص من يعرفه ومن لا يعرفه، والغضبان يرضى أن يقع فى النيران إذا جر معه غيره، وانظر إلى ما صنعه الغضب فى عبدالله بن الزبير لما اعتنق مالكاً فى الميدان ونادى قومه:

«اقتلونى ومالكاً واقتلوا مالكاً معى»

فلا يكون الغضب حينئذ من لوازم الطبيعة البشرية. ولبيان الغرض الثانى نقول: الاستعانة بالغضب فى بعض الأمور عمل لا تقتضيه الحكمة؛ لأن الغضب شر، ولا نفع يخرج من الشر، ولا نسلم أن ما يعامل به الحاكم الجناة والمجرمين فى إيقاع العقوبات بهم، من قبيل الاستعانة بالغضب، لأنها ليست للإيذاء، بل هى تقويم وتثقيف، ومن شرائط القضاء ألا يجلس القاضى للحكم وهو غضبان. وقد يغلظ الطبيب على المريض بالحمية رجاء شفائه، فإن لم تخفف من مرضه منعه من الأكل والشرب البتة إبقاء على حياته، فإن لم ينفعه ركن إلى الكى بالنار، والبتر بالسلاح، ليحفظ الأعضاء الصحيحة من عدوى ما يجاورها من الأعضاء السقيمة، فهو يكوى ويبتر وليس فى صدوره ذرة من الغضب، ولا فرق بين الطبيب والحاكم فى معاملة مرضاهما، إلا أن الطبيب ينفع مريضه بتخفيف الآلام عنه حتى الموت، والحاكم ينفع الجماعة بتشديد الآلام على مريضه أعنى المجرم، حتى الموت، فهو يعزر، ويسجن، ويضرب، وينفى، ويقتل، وليس فى قلبه خردلة من الغضب، وإنما هو رفق منه بالجماعة، وليجعل الذين يضرون الجماعة ينفعونها بموتهم، وهذا معنى قوله تعالى: «ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب».

قال «أفلاطون»: «العادل لا يضر أحداً، والانتقام ضرر، فالعادل لا ينتقم» وإذا كان العادل يستقبح الانتقام، فكيف يستحسن الغضب الذى هو علته، ومن هذا ينتج أن الغضب ليس مطابقاً للطبيعة البشرية.

وقد قال بعض الحكماء: «إن للغضب مواضع يجب استعمال جزء منه فيها، لأنه ينبه من النفوس حميتها، ويدفع بالمرء إلى اقتحام الأخطار فى ميادين الحروب، وإذا لم يكن ثمة غضب فلا يكون لشجاعة الأبطال فى المعارك شأن يذكر، وإن فى قدرة العاقل أن يقف منه عند الحد الذى يستعمله فيما يجب استعماله فيه، وهو قول باطل؛ لأن الغضب

شر، والفرار من الشر أيسر من القدرة عليه بعد الوقوع فيه، والوقوع فى جزء منه يبعث على الوقوع فيه كله؛ لأن من لم يقدر على حماية نفسه من الوقوع فيه وهو خلو منه، لا يقدر على وقفه عند حد محدود، فإنه إذا خالط النفس أصبح آمراً لا مأموراً، وحاكماً لا محكوماً، والعقل الذى ألقت إليه النفس مقاليدها، وسلمته زمامها ليهديها سواء السبيل، لا يقوم بعمله إلا إذا تغلب على الأهواء النفسية، أما إذا اختلطت به فلا يقدر على قيادة النفس فى طريق الحكمة، لوجود مشارك مناقض له فى قيادته.

ومن الأمور ما يكون تحت حكمنا، ثم نصبح تحت حكمه، مثل كلمة السوء إذا لم تتكلم بها ملكتها، وإذا تكلمت بها ملكتك، وكالمرء يكون مالكاً نفسه على شفا هاوية فإذا سقط فيها استحال عليه أن يقف فى أثناء سقوطه، وكالقوم يزحف العدو على حدود بلادهم، ويكون فى طاقتهم صدّه عنها، فيتهاونون بأمره حتى يلج الأسوار فلا يملكون له دفعاً، وهذا مثال الغضب، فإنك إذا دفعته قبل أن يخالطك نجوت منه، وإذا لم تدفعه ملكك.

وقال «أرسطو»: «أى انتصار ينال فى الحرب بلا غضب، وهو المحرك للحمية، والمولد للشجاعة، ولكن يجب أن يكون كالجندى ينقاد لرئيسه» فرد عليه بعض الفلاسفة بأن دعواه باطلة، لأنه إذا كان الغضب يمتثل للعقل وينقاد له فليس هو بغضب، فالغضب يعصى العقل ولا يتبعه، والغضب من شأنه المقاومة، فإذا اندفع بشدته فلا يمكن صده مطلقاً، ويكون بالنسبة للعقل كالجندى العاصى الذى لا يطيع إشارة قائده بالتقهقر، فإما أن يكون الغضب قابلاً لما يأمره به العقل من الاعتدال والوقوف عند الحد المطلوب فإنه ليس بغضب، بل يجب أن يسمى اسماً آخر، لأنه بهذه الحالة يخرج عن تعريف الغضب، وهو من الأهواء النفسية التى لا يستطيع العقل كبح جماحها، وإما أن يكون خارجاً عن سلطان العقل غير قابل لسلطته عليه فيكون شراً عظيماً، لا مساعداً معيناً يرتجى منه أى نفع، ولا وجه للتمثيل بالجندى إذ الجندى النافع يعرف كيف يطيع قائده، لأنه يراه أعلى نظراً وأوسع علماً منه، على أن العقل لا يقبل مساعداً له خارجا عن سلطته يكون من شأنه التهور والاندفاع بغير روية، بحيث لا يقدر على رده وكسر شوكته إلا بمعارضته بهوى نفسى آخر، كأن يعارض الغضب بالخوف، والفتور بالغضب، والخوف بالطمع،

وننزه العقل أن يشفي داءً بداء. وليس من شأن الفضائل أن تستعين بالرذائل وتستند إليها، فإن ذهبت إلى أن الغضب ينفع إذا كان ملطفاً محدداً، فكأنك اعترفت بأن له نفعاً، ولكن كيف يكون ملطفاً وهو خارج عن سلطة العقل، ولو فرضنا إمكان تلطيفه فما هو النفع المرتجى منه سوى أن يقال شر أخف من شر، وكل هوى نفسي يمكن تلطيفه لا يقال عنه إلا أنه شر ملطف، وإن قلت إن للغضب ضرورة فى ساحة القتال قلت لك إن جاز أن تسند إليه الضرورة فضرورته أبعد ما تكون عن القتال وليس يتطلب القتال حدة عمياء بل يتطلب شجاعة مهذبة بالنظام والتثقيف، أليس الغضب هو الذى يجعل المحاربين المتوحشين أحط درجات فى ميدان الحرب أمام الجيوش المنظمة المدربة، وأكثر إلقاء بأيديهم إلى التهلكة؟ وثقافة المصارع تقيه وغضبه يرديه، فما ضرورة الغضب إذاً لأمر ينال بالعقل والتدبير، أترى أن القانص الذى يرصد قنيصته ليصيبها، أو يعدو وراءها ليصيدها يكون به شىء من الغضب عليها يساعده على اقتناصها؟ كلا، كذلك المقاتل لا يحتاج إلى شىء من الغضب يساعده على القتال، فالعقل وحده هو الذى يهديه، والغضب بعيد عن الهدى.

وقد تبين مما تقدم أن لا منفعة من الغضب فى الحرب، ولا منفعة منه فى السلم يستعان بها فى تأدية الواجب.

فإن قيل لنا: ألا يغضب العاقل إذا رأى أباه مقتولاً أو ابنه مجروحاً أو امرأته سبية؟ قلنا: إن الدفاع عن الأهل والاقتصاص لهم واجب، والواجب لا يقبل شيئاً يزيد فى وجوبه، وإذا بلغ الواجب حده فلا مزيد عليه.

وكل الذين قالوا بمنفعة الغضب اعتقدوا أن الغضب يشحذ الحمية لأداء مثل هذا الواجب، والعاقل يعرف الواجب عليه، وكيف يقوم بأدائه، وإلا فإنه إذا احتاج فى القيام به إلى محرك مثير أو محرض، كانت معرفته به ناقصة، وهذا منافٍ لصفة العاقل، والأحكم والأقوم والأجدر بمن يقوم بأداء الواجب فى الدفاع عن أقاربه وأولاده وأصحابه وأهل وطنه أو الاقتصاص لهم، أن يباشر ذلك بالتبصر والتروى وصحة الحكم، لا بالتهور والتهيج والثوران وما يشابه ذلك من لوازم الغضب، وكم أضل الغضب صاحبه عن نيل غرضه وتأدية واجبه فعمى عليه وجه الصواب، فهو كبقية الأهواء النفسية التى كثيراً ما

تكون بنفسها مانعة لقضاء بغيتها، ومع ذلك كله فإذا فرضنا أن الشر نتج منه خير مرة، وأن الغضب كان منه نفع مرة، فليس فيه برهان على اعتبار ذلك والاعتماد عليه فإن من الأمراض ما تذهب به الحمى، فهل يكون ذلك داعياً إلى الرغبة فيها؟ وما أخل صحة تأتيك من طريق المرض.

وكل خير إذا عظم عظم نفعه، وكل شر إذا عظم عظم ضرره، فإذا كان فى الغضب خير زاد نفعه بزيادته، والحقيقة على خلاف ذلك، فما نفعك قليله فكثيره أنفع، وما أضرك قليله فكثيره أضر. ويليق فى هذا المقام قولهم: ما أسكر قليله فكثيره حرام.

ولو كان فى الغضب خير لكان من نصيب العقلاء من الرجال، ولكنا نرى أن أكثر من يشتد بهم الغضب هم الأطفال والنساء والشيوخ والمرضى لضعف نفوسهم، وكل ضعيف النفس موصوف بالشراسة والملاحاة والمنافرة والمعاندة.

وقال أحد الفلاسفة: لا يستطيع الرجل أن يمتنع عن الغضب على الرجل الشرير، وجرياً على هذا القول يتعين أنه كلما ازداد الإنسان فضلاً ازداد غضباً.

وأى دا ع يدعو ذا الفضيلة إلى الغضب على فاعل الشر إذا علم أن الدافع له على ارتكاب الشر هو الخطأ، ومن البعيد أن يرتكب الانسان الشر لمجرد الشر حتى لو كان بقصد سيء، إذ لابد من غاية يقصد بها فاعل الشر جلب منفعة لنفسه، والساخط على مرتكب الخطأ أولى به أن يسخط على نفسه أولاً، لأنه غير معصوم منه، ولو أنصف الإنسان من نفسه وحاسبها لوجد له أفعالاً تستحق اللوم والتعزير، والعادل من يحكم على نفسه كما يحكم على غيره، والأليق بالمحبة الإنسانية أن يظهر المرء انعطافاً على المذنب فيرشده الإرشاد الأبوى إلى سواء السبيل، لا أن يتعقبه بالسوء والأذى، والواجب أن نمحض النصيحة لذى الشر، ليكون النفع عائداً منه على نفسه وعلى غيره، لا أن نقابل شره بشر مثله، ولا نفع فى مقابلة الشر بالشر، وأى طبيب يغضب على مريضه؟

وأحوج الناس إلى البعد عن الغضب من كان بيده أمر العقوبة، لأن العقوبة لا تقع موقعها إلا إذا كانت صادرة عن العقل لا عن الغضب، ومصداق هذا ما قاله سقراط لخادمه وقد أذنب ذنباً: "لو لم أكن غضبان لضربتك"، فانظر إلى هذا الحكيم كيف انتظر أن يذهب عنه غضبه ويثوب إليه حلمه، حتى يصح له أن يوقع العقوبة.

ولا ينبغي عند تقرير العقوبة على الذنب أو الخطأ أن يكون القاضي بها غضبان منفعلاً، لأن الغضب مثل هذيان الحمى في النفس، ولا يجوز لمن كانت هذه حالته أن يصلح غيره قبل أن يصلح نفسه.

وكيف يغضب القاضي وهو طبيب الأمة، وعنده من أنواع الدواء في العقوبات ما يعالج بها كل نفس على قدر ما يصلحها؟ فمن لم يصلحه العقاب أصلحه التأنيب، ومن لم يصلحه التعزير أصلحه الحبس وهلم جرا، حتى إذا رآه عضواً فاسداً لا ينجع فيه العلاج بتره من جسم الأمة بالإعدام، فما معنى استعمال الغضب هنا؟ وواجب القاضي هو الشفقة على الأمة من جهة إصلاحها ببتر هذا العضو منها، وبالشفقة على العضو نفسه لإراحته مما هو فيه، وهل غضب إنسان على العضو المصاب بالأكلة حين البتر، ولنبحث الآن عن الغضب: هل هو يحدث في النفس اضطراراً أو اختياراً؟

أما الإنسان الكامل، فلا يستفزه الغضب، ولا ينفعل لأثر الحوادث في نفسه ولا في غيره، فإن قلت: إن الكمال يقتضي الفضيلة، وصاحب الفضيلة يرضى بما يطابقها، ويغضب لما يناقضها، فصاحب الفضيلة يغضب للرذيلة، قلنا إن ذلك مدفوع بأن من أخص لوازم الفضيلة سعادة النفس ودوام ارتياحها، فهي بعيدة عن الغضب بعدها عن الحزن، وإذا كان نصيب العاقل أن يغضب لكل شرٍ يراه، فكلما ازداد الشر ازداد غضبه، نتج من ذلك أن تكون حياة العاقل كلها غضباً وحزناً فيصبح من أتعس الناس حظاً في هذه الدنيا، وذلك مناف لأخص لوازم الفضيلة.

وهل يحلو العاقل إذا خرج من بيته أن يصادف في طريقه كثيراً من أنواع الرذائل؟ كالتي يتصف بها البخيل والسفيه والأحمق والكذوب والمنافق والسارق، وكل راضٍ برذيلته متبجح بها؟ وهل يفتح عينه أو يغمضها على غير الاستقباح والاستنكار؟ فهو على ذلك لا يخلو من الغضب طرفة عين، وكيف يكون حاله لو توجه في صباحه إلى أبواب القضاء، فوجد المئات من المتقاضين: هذا يشكو أباه، وهذا يتهم أخاه، وهذا ينازع أمه، وذلك يشهد الزور، وسواه يدعي الباطل، والمحامي ينتصر بمهارته لدعواه، والقاضي يحكم بالعقوبات على ذنوب ربما كان هو أيضاً منغمساً في مثلها.

وكيف تكون حاله إذا شاهد في المعاملات أن لا ربح لأحد إلا بخسارة آخر؟ ورأى

المجدود بين الناس محسوداً مكروهاً، والمنكود محتقراً مرذولاً، والقوى يدوس الضعيف، والضعيف يدوس الأضعف، وكل واحد ميال إلى ضرر أخيه، يعتبر الهفوة منه ذنباً عظيماً، والزلة جرماً كبيراً، والخطأ عدواناً فظيعاً، وجميعهم فى ميدان حياتهم كالمصارعين فى ميدان صراعهم، بل لا فرق بينهم وبين الوحوش الضوارى، بل هم أحق منها بصفة التوحش، لأن كل نوع منها يعيش بين نوعه بسلام وأمان، ولا سلام ولا أمان بين نوع الإنسان، ولقد رأينا الأسد يتودد إلى من يطعمه بكل علامات التودد والتحبب بينما نرى الإنسان أول فاتك بمن أحسن إليه.

وكيف تكون حال العاقل أيضاً وهو يرى الرذائل والجرائم قد ملأت الخافقين، حتى أصبحت الشرائع والقوانين لا تقوى على وقفها عند حد، ولا تطيق صد سيلها الجارف ولا تيارها الجارى؟ وليست هذه الرذائل مقصورة على قوم دون قوم، ولا فئة دون أخرى، بل كأن النوع البشرى صاح فيه صائح الشر فلباه من كل مكان. فصار الضيف لا يأمن مضيفه ولا الصهر صهره، وأصبح الأخ لا يود أخاه، والابن يستطيل عمر أبيه، ويعده بالأيام للميراث، والزوج يفكر فى التخلص من زوجته، والزوجة تدبر المكايد لزوجها، والجار يخون جاره، والشريك يغش شريكه، ثم أضف إلى ذلك مطامع الشعوب بعضها فى بعض، وما يقع بينهم من الحروب ونقض العهود وخلف الوعود والنهب والسلب، فهل تريد أن يغضب العاقل، ويسترسل فى غضبه على قدر ما شرحناه لك من الرذائل والكبائر والجرائم والمعايب؟ لا جرم أنه لا يكون حينئذ إلا على حالة لا يفى التعبير عنها بكلمة مجنون! أليس الأولى بنا أن ننسب ما الناس فيه إلى الخطأ والغلط، ولا يجدر بالعاقل أن يغضب منه، كما أنه لا يغضب على مماشيه إذا عثر فى الظلام، أو إذا نادى خادمه ولم يجبه لعارض أصابه فى سمعه، كما لا يغضب على من نهكه المرض أو التعب أو الشيخوخة، فإذا كان جديراً به ألا يغضب من هذه الأمراض الجسمانية، كذلك يجدر به ألا يغضب من هذه الأمراض النفسية التى تعمى عن الصواب، وتوقع فى الخطأ، ولينظر فى هذه الحالة إلى المجتمع نظر شفقة ورحمة، لا نظر قسوة ونقمة، فإن قيل: ليس فى طاقة الإنسان أن يدفع الغضب بتاتاً ويطهر نفسه منه تطهيراً، وإن طبيعته البشرية لا تقوى عليه، قلنا إنه لا شىء من مصاعب الدنيا إلا وفى قدرة الإنسان أن يتغلب عليه، وذلك يكون بطول الرياضة والممارسة ودوام التثقيف والتهذيب، فيلين له كل صلب، ويسهل

لديه كل صعب، وليس من هوى من الأهواء النفسية- وإن اشتد وتعاصى- إلا وفى الطاقة إخضاعه على طول الزمن بالدأب على المعالجة والتدريب، وقوة الإرادة وثبات العزيمة لا يتعاصى عليهما أمر، ولا يعجزهما بلوغ غاية، وقد وصل الناس بهما إلى ما لا يكاد يصدقه العقل فمن الناس من حكم على نفسه ألا يضحك طول حياته، فبقى عابساً ما عاش، ومنهم من امتنع عن الطعام الأيام والأسابيع، ومنهم من حاول الوقوف على رجل واحدة، فوقف عليها ليالي وأياماً، ومنهم من يمد ذراعه في الهواء، فلا يثنيه زمناً طويلاً، ومنهم من نراه يمشي على الحبل الممدود في الهواء، كما يمشي على بسيط الأرض، ومنهم من يحمل الأثقال التي تنوء بالعصبة أولي القوة، ومنهم من يطوى البسيطة مشياً على الأقدام، ومنهم من يغوص إلى قرارارة البحر، فيبقى ممتنعاً عن النفس تحت اللجة زمناً يبحث عن الأصداف، وغير ذلك كثير من الأعمال التي يطول الاستشهاد بها في قوة الإرادة وثبات العزيمة، مع طول الممارسة ودوام الرياضة، مع أن الفائدة العائدة منها قليلة ضئيلة، لا تذكر في جانب ما يحمله صاحبها من المشقة في مزاولتها، فكيف لا يمكن بعد ذلك أن يستعمل قوته هذه في التغلب على الغضب فيدفعه ويذلله؟ ولا ريب أن من وراء التغلب على الغضب ما لا يحصى من الفوائد العظيمة: فمنها راحة الفؤاد، وسكون البال، وصفاء الخاطر، وسعادة النفس، وليس في الأمراض النفسية ما يستعصى علاجه على طول الزمن، فإن القدرة الإلهية أودعت في النفس البشرية استعداداً كامناً لقبول الفضائل، وبقوة هذا الاستعداد يمكن الإنسان أن يصلح ما أعوج من أخلاقه والتوى من طباعه، إذا عقد العزيمة وراض نفسه على مغالبة الرذيلة مع الدأب والمواظبة، فتصبح له عادة وملكة لا يحس معها تعباً أو نصباً، ويهون عليه بذلك كل صعب، ولا يظنن ظان أن طريق الفضيلة وعر المسالك، بل هو في الحقيقة سهل على من يسهله لنفسه، وليس على الإنسان إلا أن يسير فيه دائباً مواظباً، فيوشك أن يصل إلى غايته، وكيف يترك الإنسان نفسه للتعود والتمرن على الرذائل، وهي كلها أذى واضطراب، ويهجر التمرن على الفضائل، وكلها ارتياح وصفاء، فيبيع راحة الحلم بكدر الغضب، ولطف الرحمة بعنف القسوة، ويبيت ليله يتململ على شوك الرذائل، والعاقبة وخيمة، والمنقلب سيء، وفي قدرته أن يبيت ناعم البال، هادئ النفس، لا يخشى ما يورثه داء الغضب من كدر العيش ونكد الحياة، فكم أودت كلمة الغضب بقائلها، وفتكت بصاحبها.

إلى هنا ينتهي بنا القول في شرح داء الغضب، ولنأخذ الآن في ذكر علاجه ودوائه، ينقسم علاج الغضب قسمين: علاج يمنع من تولد الغضب، وعلاج يذهب بحدته بعد تولده.

ولا يخفى أن الناس في تركيب أمزجتهم يختلفون سرعة وبطئاً في تولد الغضب، إلا أن هذا ليس بشيء في جانب ما يعتورهم من الأسباب الطارئة التي تزيد في تولد غضبهم، كالمرض، وضعف البنية، والانهماك في العمل، ومداومة السهر واشتغال البال بالمطامع والمطالب، إلى غير ذلك مما يهيئ التنازع في الجسم والنفس، ويكون كالبذور للغضب، وإذا تعود الإنسان الغضب، أصبحت العادة مساعدة على نمو بذوره.

وإذا التمست علاجاً لأسبابه فإنها تبتدئ بإصلاح ما فسد من كيان الجسم كي لايتولد منه كدر النفس، ثم تأخذ في دفعها واحدة في إثر أخرى: فمنها تأثر النفس من شعورها بالإهانة، ويجب لدفع هذا ألا يعجل الإنسان في الحكم على شيء وألا يأخذ بظواهر الأمور من أول وهلة لأنه ربما وجد في طياتها ما يغير منها، وتكون الحقيقة على خلاف ما تصور في بادئ الأمر.

ويجب على الإنسان أن يتجنب على قدر طاقته تسرعه في تصديق ما يكدرها، قبل التمكن من الحكم الصحيح، وقد نرى نفوساً كثيرة تجاوزت الحد، حتى صار سوء الظن عادة لها وديدناً، وكم غضب الإنسان من صاحبه لابتسامة، أو لحظة، أو لفتة، أو إشارة يؤولها سوء ظنه تأويلاً سيئاً، مع أن الواجب عليه أن يحملها أولاً على المحمل الحسن، وأن يقف غضبه حتى تتبين له الوجهة المثلى، لأن الانتقام إذا تأخر يمكن استدراكه، ولكنه إذا وقع تعذر تداركه.

يحكى أن أحد اليونانيين تآمر على ملك ظالم لهم، فعرف ذلك أعوان الملك، وأخذوا في تعذيب الرجل ليدل على شركائه، فشرع يسمي للملك واحداً بعد واحد ممن سماهم، وما زال الرجل يسمي والملك يثور به الغضب فيقتل، حتى أتى على جميع المخلصين له. ثم سأله هل بقي أحد؟ فقال له الرجل: «لم يبق إلا أنت وحدك لأني لم أترك لك شخصا أميناً تعز عليه حياتك» فكانت سرعة الحكم في حدة الغضب معينة للرجل على الملك، حتى جعله يفني بيده جميع من يثق بهم وبقي من بعدهم وحيداً بغير معين.

ولكن انظر إلى ما فعله «الإسكندر الأكبر» من التروى والتأنى فى الحكم، فقد كتبت إليه والدته تنصحه بالتوقى والتحرس من طبيبه، وأن يمتنع عن الدواء الذى يقدمه له مخافة أن يكون قد دس فيه السم، فلما جاءه الطبيب بالدواء تناوله منه، فشربه بيد وناوله كتاب الوالدة باليد الأخرى، ولم يفعل ذلك إلا بعد التروى والتثبت من أن طبيبه الذى وضع ثقته فيه لا يمكن أن يخونه.

ومثل ذلك أيضاً ما يروى عن أحد الملوك الفاتحين، أنهم جاءوا إليه بعد الفتح بصندوق يحتوى أوراقاً يتخابر بها أعداؤه مع رجاله، فأمر بحرقها من غير أن يطلع عليها، ولم يجعل نشرها سبباً للغضب عليهم والانتقام منهم.

فينبغى للإنسان ألا يتسرع فى تصديق كل ما ينقل إليه قبل التثبت منه، والتغابى فى كثير من الأمور خير له من إعلانه خيانة الناس.

ليس الغبى بسيد فى قومه   لكن سيد قومه المتغابى

وليبعد ما استطاع بنفسه عن سوء الظن والتوهم، فإذا رأى أن صاحبه مثلاً قابله بتحية لا تليق به، أو أن وجه صديقه لم يكن بشا عند لقائه، أو أن جليسه قطع عليه الحديث، أو أن خليله لم يدعه لوليمة، أو أنه أعرض عنه عند مقابلته، فليبادر إلى التماس العذر له، لا إلى سرعة الغضب منه، لاحتمال أن يكون صاحب التحية مشغولاً بأمر يهمه، والمقطب مهموماً بحادث ألم به، وقاطع الحديث خشى فوات المناسبة لغرض له، وصاحب الوليمة كان عذره النسيان، والمعرض عند المقابلة كان مشتغل النظر بأمر آخر، إلى غير ذلك من الأسباب التى كثيراً ما كان إهمال التبصر فيها والتسرع إلى سوء الظن فى شأنها، سبباً لوقوع العداوة والبغضاء بين الأصدقاء والخلطاء، وداعية إلى تعود الغضب والاستمرار عليه، أضف إلى ذلك كثيراً من الأمور التافهة الواهية التى يغضب منها الإنسان من غير حق ولا تمييز، كأن يغضب من بطء الخادم فى حركته، أو من خلل فى نظام مائدته أو فراشه، أو وضع شىء من أشيائه فى غير موضعه المعين له، فالغضب لهذه الأسباب الواهية ضرب من الجنون منشؤه ضعف النفس وارتخاؤها من طول التنعم، حتى صارت تتأثر بأقل مؤثر، كما يحكى عن ذلك المتنعم الذى نظر إلى حاطب يجهد نفسه فى تقطيع الخشب فأثر فيه ذلك المنظر لضعف قواه، فكان الحاطب يقطع وصاحبنا

يعرق له، أو كالذى نهك الترفة جسمه إلى درجة جعلته يتململ على فراشه من مس الأزهار المنثورة تحت ملاءته، وليس الزهر هو الذى آلمه بخشونته، وإنما آلمه رخاوة جسمه المسموم بالترف والتنعم، وكم من واحد منهم أخرجه الغضب عن طوره لعطسة عطسها الخادم، أو سعال اعتراه فى حضرته، أو من تقصير فى طرد ذبابة، أو من وقوع مفتاح إلى أرض أزعجه صوته، ومنهم من تصدر عنه الأفعال الكثيرة التى يجور فيها على نفسه ثم على إخوانه والأقرب فالأقرب من معامليه، حتى ينتهى إلى خدمه وأهل بيته لسبب من تلك الأسباب الواهية، فيكون عليهم سوط عذاب لا يقيلهم عثرة، ولا يرحم لهم عبرة وإن كانوا أبرياء من الذنوب، بل يتجرم عليهم ويهيج فيهم فيبسط يده ولسانه وهم لا يمتنعون عنه، ولا يتجاسرون على رده، بل يذعنون ويقرون بذنوب لم يقترفوها، استكفافاً لعاديته وتسكيناً لغضبه، وهو مع ذلك يستمر على طريقته لا يكف يداً ولا لساناً، وقد شاهدنا منهم من يتجاوز به الغضب على نوع الإنسان إلى البهائم التى لا تعقل، وإلى الأوانى التى لا تحس، فربما قام إلى الحمار أو إلى الفرس فضربهما ولكمهما، وربما كسر الإناء، وربما كسر القلم إذا تعلقت به شعرة من الدواة واجتهد فى إزالتها فلم تزل، وكان أحد ملوك اليونان يغضب على البحر إذا اهتاج واضطرب وتأخرت سفنه عن النفوذ فيه، فيقسم ليطرحن الجبال فيه حتى يصير أرضاً، ويقف على الشاطئ يهدد الأمواج ويزجرها، حتى تنتفخ أوداجه ويحتقن وجهه.

فإذا علمنا أن الرفه والتنعم هما من أكبر الأسباب المولدة للغضب، كان أول علاج لدفعه تربية الجسم والنفس بالرياضة والتخشن.

ويغضب الإنسان على من يكون من شأنه أن تصدر عنه إهانة، وعلى ما ليس من شأنه أن تصدر عنه إهانة قط لخلوه من الإرادة. مثال ذلك أن يغضب من زر من أزرار قميصه استعصى عليه فيمزق القميص، ويغضب من حذائه لضيقه فيرمى به الحائط، أليس من الجنون أن يغضب الإنسان على أشياء لا تدرك ولا تحس ولا يؤثر فيها الانتقام؟ ولعل قائلاً يقول: «إن الإنسان لا يغضب على هذه الأشياء فى ذاتها، ولكنه يغضب على صناعها»، فنقول: إن غضبه يسبق هذا التمييز، فهو يفعل ما يفعله بها، وليس فى فكره أدنى تصور لمن صنعها، ولو فرضنا إن كان غضبه على صناعها، فما يدريه لعل لهؤلاء الصناع أعذاراً مقبولة: كعجز أحدهم مثلاً عن إتقان صنعه، وما معنى« الغضب عليه وهو

لم يقصد أن يغضب أحداً البتة؟ ومع ذلك لو استحق هؤلاء الصناع غضب الناس عليهم؛ فهل يليق بالعاقل أن يغضب على الأشياء المصنوعة، كما أنه لا يغضب على الحيوانات التي لا تعقل وهي لا تفعل شيئاً بنية الإهانة، وإنما تفعل ما تفعله للدفاع عنها.

فإذا كان الغضب لا يجوز على الجماد ولا على الحيوان، فهو لا يجوز أيضًا على الأطفال والصبيان، ولا على الذين انحطت قواهم العقلية فصاروا في منزلة الأطفال، وإن شابت نواصيهم، وتقوست ظهورهم، والقاضي العادل لا يحكم في هذه الحال بعقاب لفقد التمييز.

ومن الأفعال ما يكون خالياً من ملكة الإضرار كأفعال الجمادات والحيوانات، ومنها ما هو خال من إرادة الإضرار كالتقويم والتأديب، ومن هذا القسم القضاة العدول والآباء والأمهات والمعلمون والمؤدبون، فإن ما يصدر عنهم من العقاب فيه من المنفعة لك، مثل منفعتك بدواء الطبيب وإن كان مراً، والعمل بالحمية وإن كانت مكروهة للوصول إلى الشفاء من المرض، فيجب على العاقل أن يكون نظره متجها دائما إلى المقاصد والنتائج في الأقوال والأفعال. ولو أنصفنا لوجدنا أن ما ينالنا من عقوبة القضاة والآباء والأمهات والمؤدبين، أدنى درجات من مقدار الذنوب التي ارتكبناها ولكن اعتقادنا في أنفسنا البراءة من كل ذنب، حتى نكاد نقول بعصمتنا، هي التي تكبر في أعيننا حد العقاب، ولكن إذا أيقنا أنه ما من أحد يخلو مما يلام عليه في السر والعلانية، هان علينا الأمر، فلم نغضب لجزاءٍ أو عقابٍ نزل بنا، وكل غضب من هذا القبيل ذنب آخر يضاف إلى ما ارتكبناه واسمه «الصلف والكبرياء».

أين الرجل الذي يقدر أن يقول للقانون: ليس لك على سلطان لطهارة ذيلي في السر والعلن؟ إن كل إنسان في هذا العالم لابد أنه فعل شراً ما، أو قصد فعله، أو فكر في فعله، أو تمناه، أو ساعد غيره عليه. فإذا تبجح متبجح بأنه لم يفعل شرًا في دنياه، كانت حقيقة دعواه عدم نجاحه في إيقاع الشر، وعلى هذا إذا أنصف الإنسان من نفسه، وعلم أنه مصدر للخطأ والذنوب، قابل ما يقع عليه من العقوبة بالرضا، ولم يأنف من توجيه اللوم إليه.

ولنرجع إلى ما كنا فيه، فإذا قيل لك: إن فلاناً تكلم فيك بسوء فلا تعجل في

الحكم، بل ابحث فى الأمر بحث الرجل المنصف، فلعلك فعلت معه ما حمله على الكلام فيك، ثم ارجع إلى نفسك تجدها قد فعلت بالناس ما فعله ذلك المتكلم بك، وقلت فيهم مثل ما قاله فيك أو أكثر منه، واحمل ما أتاه معك على التشبه بك والمساواة لك، لا على التعدى عليك، أو احمله على مناسبات الحديث وإرسال النكتة؛ ولطالما اندفع المحدث إلى سوء القول التماساً للنكتة لا سواها، فجاءت بأوخم العواقب، ومما يحكى فى هذا الباب: أن أحد ملوك اليونان القدماء كان أعور، وكان أصله طاهيا، فانحرف ذات يوم عن شاعره وجفاه، فقال أحد أصدقاء الشاعر له: «أنا على يقين أنك لو ذهبت إليه، والتمست منه العفو لعفا عنه». فقال: أخاف أن يأكلنى «السيكلوب» نيئاً- والسيكلوب حيوان خرافى بعين واحدة- فجمع فى هذه الكلمة بين التعريض بالعور والطباخة، وسمع الملك بذلك فأمر بقتله، وما جره إلى ما قال إلا إرسال النكتة ليس غير، ثم احمل ما يقال فيك أيضًا على جهل القائل بك لنفرض أنه قال ما قاله متعمداً، ألا يجوز أن تكون مصلحته متوقفة على تلك الكلمة، وأن نجاحه فى حاجته لا ينال إلا بها، ولكن أين نجد هذا العاقل المنصف من نفسه؟ أنجده فى الرجل الشهوانى الذى يستهوى امرأة غيره ويخدعها، مع اجتهاده فى المحافظة على زوجه والغيرة عليها؟ أنجده فى الرجل الخائن الذى يطلب مع خيانته الوفاء من الناس؟ أنجده فى الرجل البخيل الذى يعير البخلاء؟ أنجده فى الرجل الحانث فى أيمانه الذى يشمئز من حنث غيره؟ أنجده فى الرجل المطبوع على المكر والكيد، وهو يشكو مكايد الناس؟ لقد تعودنا أن ننشر عيوب الناس على أعين الناس، ونطوى عيوبنا وراء ظهورنا، فترى الوالد يعيب على ولده الانهماك فى الملذات والشهوات، وابنه أقل انهماكاً منه فيها، وترى الظالم الجائر يغضب على غيره إذا تعدى على أحد، وترى قاطع الطريق يغضب على السارق، ولكنك إذا أمعنت وجدتهم لا يغضبون للأفعال، وإنما يغضبون على الأشخاص.

وعلى هذا إذا نظرنا نظرة الإنصاف فى نفوسنا، كنا أكثر تسامحًا وغفرانًا لغيرنا، لأننا ارتكبنا من أمثال الأفعال التى نغضب لها الشىء الكثير.

ومن علاج الغضب أن تنصح للغضبان أن يقف وقفة فى غضبه، فإذا وقفها وكان ممن يفكر ويتدبر خف غضبه ثم زال، ولا تأملن أن تنتزعه من يد الغضب دفعة واحدة، فذلك ما لا سبيل إليه، وإنما يزول الغضب شيئاً فشيئاً حتى يذهب أثره.

إن الأمور المسيئة المهينة لا تخلو من أن تكون منقولة، أو مسموعة، أو مرئية، أما المنقولة فلا ينبغى التسرع فى تصديقها، فإن كثيراً من الناس يكذبون، إما بقصد الغش والخديعة، وإما أن يكونوا قد انخدعوا بالكذب فنقلوه، فترى أحدهم يرمى الآخر بكراهته لك تذرعاً إلى مودتك، وطلباً للمنزلة عندك، فهو ينقل إليك السوء ليظهر من خلاله مكانتك عنده وشفقته عليك، وترى بعضهم تدفعه دوافع الحسد والمنافسة ليفصم بنقل السوء عرا المودة بين المتحابين، وبعضهم يفعل ذلك لمحض التسلية، والتمتع بمشاهدة وقوع الشقاق بين الناس، وهو بعيد عن خطر الوقوع فيه.

والعجب للإنسان يكون قاضياً بين المتخاصمين، فلا يحكم بينهم ولو فى مسألة واهية، إلا بعد التحقيق، والتدقيق، وشهادة الشهود، ومناقضة الخصوم، حتى تتجلى له الحقيقة واضحة فيحكم حكمه، ولكنه إذا سمع كلمة السوء منقولة عن صديقه، بادر فى الحال إلى تصديقها، من غير استشهاد أو سؤال لصديقه، وما أسرع ما تملكه حدة الغضب، فيتجهم لصاحبه وينزوى عنه، وتحل العداوة محل الصداقة، ويحكم عليه بارتكاب السوء، والمحكوم عليه لا يدرى ما ذنبه ولا يعلم من الذى اتهمه! ولقد يبالغ المرء فى التصديق والحكم كأنه قد شاهد وخبر، وحقق وأكد، والناقل هنا يكون أسرع الناس إلى إنكار ما نقله إليك، إذا دعى إلى إثباته، وربما أوصاك وهو ينقل إليك ألا تذكر اسمه، واشترط عليك أنك إذا ذكرت اسمه أنكر ما قاله، وأنه لا يخبرك بشىء بعد ذلك؛ فهو يدفعك إلى ميدان العداوة من جهة، ويتحاشاه من جهة أخرى، ومن كانت هذه حالة فى نقل القول متستراً، فهو المخبر المنكر فى آنٍ واحد، فهل ترى بعد هذا شيئاً أفظع من أن تظلم صاحبك بتصديق خبر مكذوب، نقله الناقل إليك فى الخفاء فأسرعت إلى مقابلة صاحبك على أعين الناس بالعداء والجفاء؟

وأما المسموعة أو المرئية فيجب علينا فيها أن نكون على علم بطباع من صدرت عنه، وعلى بينة من نيته، فإن كان المسىء إليك صبياً، وجب عليك أن تعذره لصغر سنه، فإنه فى هذه الحالة لا يدرك ما صدر عنه من الشر، وإن كان المسىء والداً لك، فإما أن تجعل ما له عليك من الحقوق والمنن المتوالية مكفراً عن تلك الإساءة، وإما أن تعتبر ما تحسبه إساءة منه، نعمة جديدة عليك فى تقويم أخلاقك، تضاف إلى نعمه السابقة، وإن كان المسىء امرأة، فالنساء غرائر، وإن كان المسىء مضطراً إلى ذلك لسبب من الأسباب،

فليس من الإنصاف أن تغضب على المضطر، ويجوز أن تكون أنت الذى اضطررته بما ابتدرته من الإساءة وليس في المكافأة من إساءة وإن كان المسىء ملكاً قادراً فاخضع لحكمه إن كان عادلاً، وامتثل لقدرته وسلطانه إن كان جائراً، فإن كان المسىء من غير ذوى الإدراك- حيواناً كان أو غيره- فشعورك بالإساءة منه نزول إلى درجته، وسقوط إلى منزلته، وإن كانت الإساءة من مرض ملم أو خطب مفاجئ، فاحتماله بعزم الرجال يخفف منه، وإن كانت الإساءة بقضاء الله وقدره، فلا عتب على القضاء، ولا غضب على القدر، وما للعاقل إلا الرضاء بأحكام الله فى سرائه وضرائه، فإن كان من ظننت صدور الإساءة عنه من أهل الفضيلة، فلا تركن إلى الظن «إن بعض الظن إثم»، وإن كان من أهل النقيصة فلا تعجب، ولا تغضب من صدور الإساءة عنه، وإن كان المسىء مسخراً ومؤجراً فعقابه ما فعله من الشر، وكفى بالندم عقاباً.

فإن قال قائل: إن فى الغضب ارتياحاً، وفى مقابلة الشر بالشر لذة، أنكرنا عليه ذلك كل الإنكار، وقلنا له: إذا كان في مقابلة الخير بالخير لذة، وكان وجه المعروف والجميل جميلاً، فان العكس فى مقابلة الشر بالشر، والكريم من يخجل من الانهزام فى ميدان الخير، كما يخجل من الانتصار فى ميدان الشر.

أما الانتقام فهو مما يترفع العاقل عنه، وإن كان يتناول معنى العدالة، وهو لا يختلف عن بادرة الغضب إلا بمضى الزمن فى التربص له، وكيفما خف الانتقام ولطف، فإنه لا يفترق عن الإساءة والإضرار إلا بالتماس العذر لفاعله. لطم أحد الناس حكيماً من الحكماء فى طريقه، فلما رجع يعتذر إليه عن اللطمة، قال له الحكيم: «فيم الاعتذار؟ ما أذكر أنك لطمتنى»، فرأى بحكمته أن تناسى الإساءة والتغافل عنها أجمل فى النفس من ذكرها، وأفضل من الانتقام لها، وأرقى من العفو عنها، ولقائل أن يقول: أما وجد الحكيم حرجاً ومضضاً فى نفسه من وقوع تلك اللطمة عليه؟ فنقول: كلا! بل وجد ارتياحاً وانشراحاً؛ لأن النفس العظيمة يزدهيها أن تحتقر الإساءة ومن صدرت عنه، وأشفى من الانتقام وأعظم منه أن يحس المسىء إليك أنه ليس أهلاً لأن يستفزك الغضب عليه.

وكم من منتقم لأمر صغير، جره الانتقام إلى أمور عظيمة وأضرار بليغة، فلنترفع، ولنتكرم، ولنفعل ما يفعله ملك الضوارى إذا رن فى أذنه عواء الأكلب الغُضف، لم يطرف

نحوها بعينه ولم يلتفت إليها بعنقه، فإن قلت: إن الانتقام يوجب الاحترام والتوقير، قلنا: إنك إذا أردت أن تستعمل الانتقام كالدواء، فلا حاجة إلى إضافة الغضب إليه، ولا ضرورة لأن ترى فيه ارتياحاً واستشفاءً وحسبك أن تعتبره فعلاً نافعاً.

ويجب على العاقل أن يحتمل الإساءة من ذوى السلطان بالبصر، وإذا شاء فبالقبول والارتياح، لأنهم إذا شعروا بسوء قبولهم وشدة تأثيرها، زادوها أضعافاً.

وأكبر عيوب الذين أسكرهم الدهر بالمناصب والمراتب، أنهم يضيفون إلى إساءتهم الحقد على من أساءوا إليه، على أنه لا محل للحقد بعد الإساءة، وقد قيل لرجل شاخ وهرم في خدمة الملوك: «كيف بلغت هذه السن وهى شاذة نادرة فى حاشية الملوك»؟ قال بلغتها بقبول الإساءة والشكر عليها، وقد يوجد الإنسان فى أحوال يكون إظهار التأثر فيها من الإساءة أشد خطراً منها.

ويحكى عن أحد الظالمين من قياصرة الرومان: أنه امتعض من تكلف أحد الشبان من أولاد الكبراء، فى زيه وشكله وزينته، فأمر بسجنه، فجاء أبوه يلتمس العفو عنه فقال له القيصر: «قد قتلته»، وأوعز فى الحال بقتله، ثم أراد أن يخفف عن الوالد من مصيبته، فدعاه إلى شرف الطعام على مائدته فى مساء ذلك اليوم، فحضر الرجل وليس على وجهه أثر من الحزن والغضب، فناوله القيصر بيده كأساً من الخمر فشربها، وكأنما يناوله دم ابنه، ثم أمر القيصر بتضميخه، وتعطيره، وتتويجه بالزهور، كما هى العادة فى مجالس أنسهم، ووكل به من يراقبه، فتقبل الوالد ذلك بالطلاقة والبشاشة، ثم أخذ مجلسه على مائدة القيصر، مع تسعة وتسعين من الكبرياء والعظماء، وبقى فى مساء اليوم الذى قتل فيه ابنه يتغالى معهم فى لهوهم ولعبهم، مع ضعفه وشيخوخته، كأنما جاءته البشرى بمولود.

وكأنى بك تقول: «ما سبب هذه المذلة والمسكنة»؟ فأقول لك كان للرجل ابن ثان، يريد أن يحتفظ بحياته من هذه اليد المطلقة فى الظلم، وما كان ليتأخر الرجل عن مصادمة ذلك الجبار، لو كان ما يخشاه متعلقاً بشخصه وحده، ولكن المحبة الأبوية تغلبت على كل تأثر وانفعال، ولولا كتمانه ما يغلى فى صدره من الحزن، وإظهاره ما تكلفه فى حضرة الملك من البشاشة والمجاراة فى اللهو واللعب، لكان الابن الثانى قد لحق بالابن الأول.

والعقل يرشدنا أن نمتنع عن الغضب على من هو ندٌ لنا، وعلى من هو فوقنا فى القدر، وعلى من هو دوننا فى الدرجة، فإن الانتصار فى مصارعة الند مشكوك فيه، ومصارعتك من هو فوقك جنون، ومصارعتك من هو دونك سفالة ودناءة.

ومن وسائل تسكين النفس عند الغضب أن تتذكر للمغضوب عليه يداً من المعروف أسداها إليك، فيكون ما أتاه من الخير فيما مضى، مكفراً لما فعله من الشر فيما حضر، ولا تنس ما يعقب العفو والحلم من حسن السمعة وجميل الشهرة، وكم من صديق حميم اشتريته بالعفو والحلم، ولا شيء أبدع من استخراج الصداقة من العداوة، وأبلغ القول فى هذا الباب ما جاء فى الكتاب الكريم: «ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىٌ حميم» وقوله أيضاً: «ويدرءون بالحسنة السيئة» ومن السفاهة والحمق أن يتناول غضبك الأبناء، لذنوب الآباء والأجداد، فتحمل عليهم حملة الظلم لحقدك على أسلافهم، وقد قال الله تعالى: «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

ومن وسائل تسكين النفس أيضاً أن تتذكر وقوفك بين يدى من لا يرحمك ولا يعفو عنك، فإن أرضاك ما تراه من القسوة عليك، فلك أن تعامل بها من وقف بين يديك، وكم من مرة رفضت فيها العفو عن سواك، فأنزلك الدهر إلى طلب العفو منه، ورماك الزمن تحت أقدام من كانوا يلتمسونه منك بالأمس، وإذا قيل لك إن فلاناً حول النحاس ذهباً، والحصى دراً، طال إعجابك به، وإعظامك له، وعددت ما صنعه من الخوارق، ولكن من يحول العداوة صداقة، والبغض محبة، والحرب سلماً، والمكافحة مصافحة أولى بالإعجاب، وأحق بالإعظام.

ومن وسائل تسكين النفس أن تتصور ما تكون عليه هيئة الغضبان، من تشوه الوجه، واضطراب الأعضاء في ظاهر الجسم، فما بالك بما تكون عليه النفس فى باطنه.

ومن وصايا بعض الحكماء: «إذا غضبت فأسرع إلى النظر فى المرآة»، ومن الجنون أن يغضب الإنسان لدرهم، فيصاب من الغضب بمرض، لا يكفى ماله كله لعلاجه.

وحدة الغضب يقع شرها على الغضبان أكثر مما يقع على المغضوب عليه، فيضرب الغضبان نفسه، ويمزق ثيابه، وينزع شعره، ويعض يديه، ويلطم وجهه، وقد رأينا

أحد الحكام في مصر كان يعض من يغضب عليه؛ فكان لكبر سنه يفقد في كل عضة سناً من أسنانه، حتى إذا فنيت أسنانه الطبيعية ووضع مكانها أسناناً صناعية، لم تتركه عادة العض عند الغضب، فكان كلما غضب على إنسان ترك صف أسنانه فيه، فيقوم من كرسيه مهرولاً وراء الرجل، وهو يفر من أمامه، ويناديه بفيه المشوه ويلك! أسناني! أسناني حتى يردها إليه بعض الحجاب بعد أن صار ضحكة الحاضرين.

واعلم أن الأهواء النفسية تدخل في النفس تدريجاً إلا الغضب، فإنه يدخلها دفعة واحدة، فيتغلب على بقية الأهواء، ويتسلط عليها، ويبقى وحده قائمًا فيها يتصرف كما يريد، فهو لذلك أعظمها شرًا، وأكثرها ضرراً، وكم غضب العاشق- والعشق أكبر أهواء النفس- فيقتل معشوقه، وقد يغضب البخيل- والبخل من أثبت الأهواء في النفس- فيبسط يده في ماله، ويبعثر في ثروته؛ توسلاً إلى الانتقام، ووصولاً إلى التشفي، وقد يغضب المتفاني في حب المعالي والمراتب، فيهدم في لحظة واحدة ما بناه من المجد في أعوام. وهلم جرا.

وينبغي لاستئصال الغضب، أو وضع حد لاندفاع النفس فيه، أن يكون العلاج مناسباً لحالته، فتارة تقاومه بالكشف والصراحة، إذا كانت حالته خفيفة تساعد على ذلك، وأحياناً باتخاذ طرق المداواة والاحتيال لدفعه، إذا كانت المقاومة والمعارضة مما تزيد في شدته، وعلى كل حال لابد أن تنظر إلى درجة نموه، وهل يجوز مقاومته أو التسليم له في أول هجماته وشدة بأسه؛ خشية أن تزيد المقاومة في اندفاعه، كما يندفع السيل فيقتلع الحواجز، والمعول في ذلك كله على معرفة أخلاق الغضبان، فمن الناس من يهدأ غضبه، وتزول عنه سورته بالخضوع والامتثال، وفيهم من يتضاعف غضبه، ويشتد على مقدار التضرع والترجي، ومنهم من يسكن غضبه بالإرهاب والتخويف ومقابلة الانفعال بمثله، ومنهم من يسكن غضبه إذا أقر المغضوب عليه بذنبه وأنه لا يعود إليه، ومنهم من لا يسكن غضبه إلا بمرور الزمن، وهذه آخر درجات العلاج وأبطؤها، ولا يخفى أن جميع الرذائل يمكن وقوفها في سيرها مدة التأجيل في العلاج إلا الغضب، فإنه كالعاصفة في انطلاقها، والصاعقة في انقضاضها، فلا يتمهل ولا ينتظر، بل يولد قاهراً في أشد قواه، وليس من خاصته أن يأتي النفس للاستيلاء عليها من طريق الاستدراج كبقية الرذائل، ولكنه يسحبها سحباً، فيقذف بها في هاوية الشر، ولو كانت

النتيجة وقوع الضرر كله عليها، والغضبان يصرع نفسه، ويصرع المغضوب عليه، ويصرع ما يلاقيه فى طريقه مما لا ارتباط له بالحادثة مطلقاً. والرذائل تجر النفس إلى الهلاك، ولكن الغضب يقذفها قذفاً، وإن لها لفترات، ولكن لا فتور للغضب ولا هوادة. وينشأ بعض الرذائل من انحراف فى صحة النفس يدب فيها ويدرج، فلا تشعر بتقدمها فيه، والغضب حمى نازلة يصرعها مرة واحدة، بقطع النظر عن درجات الأسباب المغضبة فى صغرها وكبرها، فإن الغضب يدفع بصاحبه إلى أقصى درجات التهور من أوهى الأسباب، كما يبلغها من أعظم الأسباب، ثم هو لا يستثنى كبيراً ولا صغيراً، ولا يسلم منه شخص بمفرده، ولا أمة بمجموعها.

وقد وجدنا أمماً وشعوباً تسلم من بعض الرذائل فلا تكتنفها، فمنها التى يمنعها فقرها من رذيلة الفضول فى العيش، ومنها التى تحول طبيعة بداوتها دون البطالة والكسل، ومنها التى لا تعرف الغش والخداع، لسلامة أخلاقها الفطرية، ولكنك لا تجد أمة سلمت من رذيلة الغضب وبوائقه، فهو شديد عند العرب، كما هو شديد عند العجم، وشديد فى المدنية ذات القوانين والشرائع، كما هو شديد فى الجاهلية الجهلاء، وقصارى القول إن سلطة الرذائل النفسية تتناول الأفراد والأشخاص، ولكن سلطة الغضب تتناول الأفراد والجموع، فما سمعنا أن أمة بأسرها أولعت بهوى امرأة، أو أنها اندمجت كلها تحت آفة البخل إلى غير ذلك؛ ولكننا طالما سمعنا بأن الغضب استولى على أمة بأجمعها، فساقها تحت رايته رجالاً ونساء، شيوخا وغلماناً، وعظماء وأدنياء، ينفرون سراعا إلى ميدان الغضب، وتكفيهم الخطبة الواحدة والصرخة النافذة، للهياج والثوران، ومن العجب فى هذا الشأن أن المثير للغضب، والمشعل لنيران الثورة، والنازل المتقدم لا يلبث أن يكون مسبوقًا بعد أن كان سابقًا، ومقوداً بعد أن كان قائداً، فتقفز الأمة قفزة واحدة، وتلقى بنفسها بين النار والحديد، فتحارب جارتها إن لم تحارب نفسها بنفسها وتخرب أوطانها بيأسها.

ويجب لدفع الغضب عن النفس أن تبعد بها عما يجهزها لحلوله، فلا تزاول من مساعى الحياة ومطالب الدنيا ما يزحمها ويكثر همها، ولا تقتحم بها مجاهل المطامع وفيافى الآمال والأمانى، ولا تحملها ما لا تطيقه، فيتكدر صفوك، ويضيق ذرعك، فيجد الغضب وقوداً لضرامه فى الصدر، وقدحاً لزناده فى القلب، ومن كلمات الحكيم

«ديمقراط»: «إذا أردت أن تعيش هادئ البال هنيء العيش، فلا تزحم نفسك بكثرة المطالب وتعدد الأعمال، خاصة كانت أو عامة، ولا تقصد منها إلا ما كان مناسبًا لقواك حتى لا يثقل عليك حمله».

ومن كان متقسم الأوقات بين المطالب المتعددة والمقاصد المختلفة، يستحيل عليه أن يسلم من مصادمة الموانع والحواجز فى طريقه من الأشخاص والأشياء، فيهيج منها غضبه، ومن دخل سوقا كثيرة الزحام وهو يعدو، لم يسلم من التعثر بأذياله، ومصادمة هذا ومعارضة ذاك، والوقوع تارة والقيام أخرى، وكذلك من يتصدى لمباشرة أمور جمة وأعمال متنوعة ويقف عليها حياته، فإنه يكون فى كل أوقاته عرضة للأحزان والأكدار، وهى بساط الغضب فى النفس، ولشد ما تجد فى طريق أعمالك من يقابلك بعكس ما تأمله، ومن يقف سداً أمام مطلبك، ومن يبادر إلى اختطاف الفائدة التى تنتظرها فى مسعاك، ومن يدفعه الحسد فيسعى فى قلب المنفعة من أعمالك إلى المضرة، وكثيراً ما يخيب المطلب الذى تثق بالنجاح فيه، والدهر لا يخدم إنساناً إلى حد أن يتوج أغراضه التى تعد بالألوف بتاج الفوز والنجاح، بل تتعدد الخيبة على مقدار تعدد المطالب، فتشمئز نفسه حينئذ، ويتكدر خاطره، ويستعد للغضب من أوهى الأسباب؛ فيغضب على الإنسان والحيوان والجماد، بل يغضب على القضاء، وعلى نفسه أيضاً، فهدوء البال وصفاء النفس متوقف على ألا تنهك قواك، وألا تحمل نفسك ما لا تطيق، وإنه ليسهل على المرء أن يحمل حملاً، ينقله من كتف إلى كتف كلما أتعبه ثقله، ولكنه إذا وضع الحمل الثقيل على كاهله فوق مقدار قوته، لم يلبث أن ينوء به، ويسقط تحته إعياءً، وكذلك شأن الأعمال الإنسانية منها ما هو هين، يقوى الإنسان على القيام به، ومنها ما هو ثقيل شديد يفوق طاقته، إذا هم لم ينهض، وإذا نهض انهدَّ به، فعليك أن تختبر قوتك قبل الشروع فى الأعمال، وتقابلها بقوة العوارض والموانع، ولتكن أعمالك متوسطة لا تفوق طاقتك، ولا تترك نفسك تحاول ما فوق قدرتها، فإن الأسف الذى يعتريها من خيبة المسعى ينقلب غيظًا وكمداً، ويجعلها دائما مستعدة لحركة الغضب.

واعلم أن عدوى الأمراض فى انتقالها إلى الأجسام، ليست بأسرع من عدوى الأخلاق فى سريانها فى النفوس، فابذل جميع جهدك فى اختيار المصاحب والمعاشر والمذارن؛ فإن الإنسان جبل على التقليد والطبع سرَّاق «وكل قرين بالمقارن يقتدى»

فالخليع يجر صاحبه إلى الخلاعة، والأحمق يقود عشيره إلى الحماقة، والبخيل يسحب رفيقه إلى البخل، والعدوى في الرذائل مثلها في الفضائل، فعليك بمعاشرة من كان دمث الأخلاق، سهل الطباع، لين العريكة، فتكتسب النفس منه من حيث لا تشعر، ولعمرك ما تفعل جودة الإقليم واعتدال الجو ونقاءة الهواء في نقه الجسم المريض ما تفعله مخالطة ذوي الفضائل في شفاء النفس المريضة، وأكبر فائدة في معاشرة أصحاب الأخلاق الكريمة والسجايا السمحة، أنك لا تجد عندهم من الأسباب ما يهيج له غضبك.

واجتنب ما أمكنك مخالطة من كان متكبراً فيحتقرك، ومن كان في طبعه السخرية فيهزأ بك؛ ومن كان كثير الجدل فيخاصمك؛ ومن كان سفيهًا فيسبك، ومن كان سيء الظن فيشك فيك؛ فتكون معرضا بينهم دائما لثوران غضبك، بخلاف الخلطاء من أهل الفضائل؛ فإنهم لا يصدر عنهم ما يحرك الغضب، بل يبادرون إلى تسكينه إذا ثارت بك ثائرته، ويجب على من كان سريع الغضب أن يخفف عن نفسه من الاشتغال بالعلوم المجردة والدروس العقلية العويصة، فلا يذهب فيها إلى درجة تشق على القريحة، وتكد النفس فتتعبها، وتهد قوتها، فتضعف وتعتل، وتصبح قابلة لسرعة التأثر، ويعين ضعفها على تسلط الغضب عليها، وكما أن الجسم إذا أجهدته بالحمل الثقيل والعمل الشاق، ولم تجعل له فترة لراحته وتجديد قوته، حل به الضعف، واستعد لنوازل الأمراض، فكذلك النفس، إذا لم ترفق بها وتروح عنها بما ينعشها، ويبعث من نشاطها، كلت وملت، فإذا أحسست من نفسك الضجر والسأم من مزاولة العلم والدرس، فعليك أن تروح عنها بمطالعة رقيق الشعر، وأنيق النثر، ونكت التاريخ، وملح الأدب، وجل بها جولة في روائع الصنائع ومحاسن الفنون، وقد كان «فيثاغورس» –شيخ الفلاسفة– إذا أحس من نفسه الضجر والملل والاضطراب في اشتغالها بالعلوم، عمد إلى تسكينها وتهدئتها بسماع الألحان الموسيقية والأنغام المطربة، ثم اجتنب ما استطعت أن تزج بنفسك في باب التشاحن والتشاجر، والتنازع والتخاصم، والتشاكي والتقاضي، فتصبح موزع النفس، دائم الهم، وما رأيت رجلاً أكثر غمًا، وأبلغ نصباً، وأشد غيظاً، وأوسع كمداً، وأسرع غضباً، من صاحب قضية يروح ويغدو جاهداً في قضائها ويقضي ليله ونهاره مهموماً، فليكن من أبغض البغض لديك الوقوف أمام المحاكم بخصوماتها ومرافعاتها، وتيقن أن الفوز في هذا خيبة، وأن الربح خسران.

ثم تعهد بدنك بمثل ما تتعهد به نفسك، كما قدمناه لك، فلا تنهكه بالتعب، ولا تهمله من حاجاته الضرورية، ولا تتركه عرضةً للجوع والظمأ وطول السهر، فيفسد نظامه، ويختل توازنه، وتتغلب عليه المِرَّة الصفراء، وعليك بإدمان النظافة، والاغتسال، ورياضة الأعضاء، وما يحول دون تزايد الأخلاط وعسر الإفراز.

ومن وصايا «فولتير» الفرنسي لبعض أصحابه: «إذا كان لك عند أمير رجاء تروم قبوله، فاحذر أن تعرضه عليه إلا بعد أن تتحقق من خادمه، أكان الأمير قضى حاجته في صباحه، فإن عدم توازن الجسم يولد كدر النفس، فتشمل به كل ما يقابلها من الأمور، ويعم سخطها كل الأشياء، فترى كل حسن رديئًا، وكل جميل قبيحًا ولقد ترى الرجل تتولاه المرة الصفراء، فيكره في يومه ما يستحسنه في غده إن زالت عنه.

وقصارى القول إن النفس السليمة لا تسكن إلا الجسم السليم، وأكثر ما يصدر الغضب عن ضعاف البنية: من الصبيان، والشيوخ، والمرضى، والزمنى، والعجزة، والمقعدين، ومن أفضل الطرق في منع تولد الغضب ألا يكون الإنسان شديد التطلع، كثير السؤال، أذناً لكل قائل وناقل، وألا يندمج في صف أولئك الذين لا يقر لهم قرار، ولا تسكن لهم حركة، إلا إذا وقفوا على ما يقوله الناس فيهم فيجلبون إلى أنفسهم ما يولد جذوة الأحقاد في صدورهم، والأجمل بالعاقل أن يسمع قول السوء بأذنه، ويرى الإساءة بعينه، فيغضي عنها، كأنه لم يسمعها ولم يرها؛ لا أنه يبحث وينقب للوقوف على ما يقال فيه في غيبته مما يسوء سماعه، وإذا مروا باللغو مروا كراماً، ومن الذي سلم من ألسنة الناس، ومن أسنة لومهم وتفنيدهم وقد قالوا في الأنبياء، وافتروا على الحكماء «وذو الجهل في الدنيا بذي الفضل مولع» على هذا درجت القرون، ودبت العصور، فإن كنت فاضلاً فلا تتأثر بما يقوله الجاهل فيك لجهله، فإنه لما عجز عن الارتفاع ليساويك في الفضيلة، حاول أن يحطك إلى درجته لتساويه في النقيصة، يفتريها عليك، ويدلي بها إلى الناس، فإن أنت تأثرت بأقواله كنت جديراً بالنزول إلى مرتبته، وساعدته على بلوغ مأربته، واعلم أنك إذا حصلت على جميل الأحدوثة من رجل واحد من أهل الفضل، فلا تبال بسوء ذكرك في أفواه ألف رجل من ذوي الجهل، واعتبر نفسك الفائز الرابح لأن شهادة الفاضل تبقى، وافتراء الجهلاء يزول، وأحسن ما تدفع به إساءة الجهلاء، أن تقابلها بالاحتقار والازدراء والتهاون والاستهزاء، وأن تقلب هناك الجد مزاحاً، واذكر

سقراط إذ خرج يوماً للتنزه، فاعترضه أحد الجهلاء، فضربه على رأسه، فالتفت سقراط ضاحكاً إلى من حوله، وقال: «الآن علمت أن من الخطأ أن يجهل الإنسان متى يجب عليه الخروج من بيته، وعلى رأسه خوذة تستر رأسه، وتقيه العوارض».

ومرور الزمن من أنجع العلاج فى سكون الغضب، فإذا هو ثار ثائره فلا تطاوعه إلى ما يمليه عليك فى الحال، بل تربص ولا تأت أمراً من الأمور إلا بعد أن يمر وقت عليه، فإنك لا تقدر على تبصر الصواب وتمييز الرشد من خلال دخانه فى التهابه، وكم نظر الغضبان فيما أغضبه بعد ساعة واحدة من انفعاله فوهنت لديه الأسباب، ووهت العوامل، وعجب من نفسه كيف يغضب ويحتد لمثلها! وناهيك بما يشمله من الأسف والندم إن كان طاوع غضبه، فدفعه إلى مالا يحمد من الأفعال، وإرجاء العقاب إلى ما بعد سكون الغضب، يرجع الفضل فيه إلى أن ما يصدر عنك إنما يصدر عن روية نفس عاودها رشدها، وثاب إليها صوابها، بعد الاضطراب والاختلال، ويكون العقل هو الذى يملى عليك ما يمليه بحكمته وهدايته، لا الغضب بجهالته وضلالته، فلا خطأ هنا فى الحكم، ولا ظلم فى العقاب.

ثم اصرف همك وعزمك كله إلى رياضة النفس على مصارعة الغضب ومغالبته عند أول نشأته، فإنك إن تهمله حتى يشب ويضطرم، استعصى عليك علاجه، وعسر عليك صده ورده، وكن منه فى موقف الفارس المتيقظ لحركات قرنه عند النزال، فلا يتركه يتقدم عليه، ولا يمتاز فى الحركة دونه، ومن لم يبادر إلى مكافحة الغضب صرعه، ومن لم يتغلب على بادرته غلبته، ومن لم يعمد إلى إطفاء الشرارة الأولى منه استعر فيه لهبه.

ومن سمات الغضب عند حدوثه أن يظهر العبوس والتقطيب والتجهم على وجه الغضبان، فعليه أن يجتهد ما استطاع فى محو هذه الآثار عن الظاهر بذلك فى تخفيف الغضب فى الباطن، وقد راض «سقراط» نفسه على ذلك، حتى وصل إلى أن يقلب تلك العلامات إلى ضدها، فكانت من علامة غضبه عند أصحابه أن يخفض صوته ويقل كلامه.

ولقائل أن يقول: إن ما نشرحه هنا من العلاج أمر صعب الارتقاء، عزيز المنال، من لنا بد ج «سقراط» فى الحكمة والعقل وأشباهه من الحكماء فى العلم والفضل، حتى

نجرى سنتهم، وننسج على منوالهم! قلنا له: إن الإنسان من أى طبقة كان، إذا أراد أمراً واعتزمه راض نفسه عليه، فهو لا شك بالغه، ومن اجتهد فى تمكين القوة الحاكمة من نفسه، تغلب بها على الأهواء، وتسلط على الشهوات، وفى قدرة كل إنسان أن يكظم غيظه ويدفع غضبه، وليس ذلك خاصاً بالعقلاء والحكماء دون سواهم من البشر، ونبسط لك هنا حادثة من حوادث التاريخ التى تعد بالألوف، تشهد فى آنٍ واحد للدرجة التى يصل إليها الإنسان فى غضبه من التناهى فى الفظاعة والجنون، وتشهد لدرجة حكمه على نفسه فى دفع الغضب عنه والمبالغة فى الجمود والسكون.

«كان أحد ملوك الفرس مدمنًا شرب الخمر، كثير العربدة، فاجترأ عليه أحد خاصته يوماً، فنصحه بوجوب الاعتدال، لما فى سكر الملوك من الغيب والنقص وانحطاط المنزلة فى أعين الرعية، فقال له الملك: «لا تظن أيها الرجل، أن السكر يذهلنى عن صوابى ويفقدنى رشدى، وسأريك برهاناً يشهد بأننى لا أزال سديد الرأى، سديد النظر، سديد الساعد، وإن استرسلت فى تناول الخمر، وأفرطت فى السكر»، ثم أمر باستدعاء ابن للرجل الناصح، فلما حضر أشار إليه بالوقوف عند الباب، وأمره أن يرفع يده اليسرى فوق رأسه، ثم تناول قوسه والتفت إلى الوالد قائلاً: «إعلم أنى أريد إصابة القلب برميتى، وسدد سهمه فرشق به قلب الغلام، فسقط قتيلا. ثم شق عن أضلاعه، وأخذ بيد الوالد، فرأه السهم مرشوقا فى سواد القلب، وقال له ساخراً مبكتاً: «أرأيت كيف أسدد الرمى وأنا سكران؟» فلم يكتف الرجل بإظهار الرضا والقبول أمام هذا المنظر الفظيع فى ابنه، بل ارتقى فى النفاق فقال له: «أشهد أن إله الصيد والقنص لا يزيد عن الملك براعة فى تسديد الرمى وإصابة الهدف»، فانظر كيف قدر الرجل أن يحكم على نفسه ويتخذ من قتل ابنه بهذه البشاعة سبيلاً للتملق والتزلف، وإذا صرفنا النظر عما فى موقف هذا الوالد من الدناءة والنذالة، علمنا أن فى قدرة الإنسان كظم الغيظ وإظهار الارتياح بدل الغضب، والانشراح بدل الكدر فى أشد الحالات وأصعب المواقف، لا فرق فى ذلك بين الفاضل، والحكيم وغير الحكيم.

وإليك حادثة أخرى من هذا القبيل وهى: أن أحد الجبابرة الطغاة غضب على أحد حاشيته، فأمر بقتل أولاده وأن تطبخ لحومهم، ثم دعا الوالد وأمره أن يأكل منها وقال له: ما تقول فى حسن هذه الضيافة؟ وهل أعجبتك ألوان الطعام؟ فأجابه «كيف لا تعجبنى، وكل ما يوضع على موائد الملوك طيب لذيذ؟»

فإذا أمكن الإنسان أن يصل إلى هذه الدرجة من مصارعة الغضب والتغلب عليه من طريق السفالة والجبانة أفليس فى إمكانه– وذلك أولى– أن يبلغها من طريق العقل والفضل.

ونعوذ بالله من الغضب مع المقدرة وإطلاق اليد بقوة البأس، فإنه لا يقف عند حد بل يتدفق كالسيل الجارف، وينقض كالشهاب الثاقب، فى شناعة الظلم وفظاعة البغى، كما رأيته فى هاتين الحادثتين، ومع ذلك قد وجدنا فى مثل هؤلاء الجبابرة العتاة من قد ملك نفسه عند الغضب، ولم يجعل له سلطاناً عليه، مع تصرفه المطلق فى النفوس والأرواح، يروى عن أحدهم أنه سمع اثنين من حراسه يذمانه ويهجوانه من وراء خيمته، فرفع الستار عنه وقال لهما: «أبعدا قليلا، فقد يجوز أن يسمع الملك كلامكما»، والأمثلة فى هذا الباب كثيرة. فإذا كان مثل هذا الملك يعالج نفسه من الغضب بهذه الكيفية مع قدرته على التشفى والانتقام، بلا ضرر يخشاه، ولا أذى يهابه، فكيف لا ينزع الإنسان غضبه من صدره، ما دام يعلم أن من ورائه الأضرار البليغة والعاقبة المكروهة.

ومن دواء النفس وتطهيرها من الغضب حسن الاكتفاء فى المعيشة، والرضا بالحالة التى أنت فيها، فلا تشغل قلبك هماً بما ليس فى يدك، ولا تكن كالسواد الأعظم من الناس، لا يلتفتون إلى التمتع بما هم فيه من نعمة، بل ينسونها، ويذهلون عنها بالتطلع إلى ما فى يد غيرهم، فلا هم يحمدون ما لديهم، ولا هم ببالغى ما فى أيدى الناس، فتنقلب النعمة عليهم نقمة، ويقضون حياتهم فى هم ونكد، وشقاء وحسد.

وأتعب خلق الله من بات حاسدًا   لمن بات فى نعمائه يتقلب

وقل أن نرى من يرضى بقسمته كيفما عظم شأنها، إذا نظر إلى قسمة أخيه كيفما صغر قدرها، فتجد صاحب المنصب الذى يحسده عليه الحاسد كئيباً حزيناً لا هو راضٍ عن نفسه، ولا هو راضٍ بمنصبه، بل لا يفتأ يشكو سوء الحظ وسواد البخت، ما دام يرى فوقه من هو أعلى منه منصباً، ولو كان فرداً واحداً، ولا يلتفت لحظة إلى من دونه من الذين علاهم ولو كانوا ألوفاً، شيمة سيئة من شيم الإنسان يشقى بها طول حياته هى ألا يحمد أبدًا على الكثير الذى يناله، بل يغضب للقليل الذى يحرمه فإذا وليته وكيلاً، لم يزل فى منصبه حزيناً حسيرا حتى يصير مديراً، فإذا صار مديراً لم يتجاوز

سروره بمنصبه الجديد أكثر من مسافة التهنئة به، ثم ينقلب إلى عادته ساخطاً شاكياً حتى يصير وزيراً، لا يزال هكذا يتدرج من تطلع إلى تطلع، ومن أملٍ إلى أملٍ، ويصبح مقسم العيش بين حزنين: حزنه من بقائه فى المنصب الذى يسعى فى خلعه عنه خلع النعل، وحزنه من بقاء من هو فوقه فى المنصب واستبطائه في خلعه منه، ولا يزال هكذا حتى تنقضى حياته ولم تنقض مآربه.

واعلم بعد ذلك أن الشره فى جمع المال هو رأس البلاء، وداعية الشقاء فى هذا العالم، وهو السبب الأكبر فى الكوارث والنوازل التى تنزل بالإنسان فى حياته، وكل ما تراه من خصام بين الأقارب، ونزاع بين الأصدقاء، وخداع بين الإخوان وشقاق بين الجيران، وخصام فى المحاكم، أصله هذا المال، ولو أحصيت ما يقع من الجنايات فى هذا العالم، لوجدتها جلها صادرة عن حب المال والشره فى طلبه، فالولد يقتل أباه، والمرأة تسم زوجها، والأخ يؤذى أخاه، والأم تشنأ ولدها، والعشيرة تفتك بالعشيرة، والقبيلة تنازل القبيلة، والأمة تهاجم الأمة، وكلهم فريسة بين شواجر الأسنة، وقواضب السيوف، كأنما بين المنايا وبينهم أرحام، ليشتروا بهذا كله ذاك الذهب الأصفر بذلك الدم الأحمر، وإذا تأملت قليلاً فيما وقع من الحروب والخطوب بسبب الطمع فى المال، علمت أنه لا يكاد يوجد بين أيدى الناس دينار رنان، لم يلوث بنقطة من دم الإنسان، تعساً لهذا الإنسان وبؤساً، فهو لا يرضى بعيش، ولا يقنع بمالٍ فتراه يُقْدِم بمهجته على الأسد فى عرينه، وعلى البحر فى هياجه، وعلى المدفع فى قذفه، طالباً للمال لينال به الجاه، ولا يزال فى هذه الدائرة الفاسدة حتى يصرعه الموت فى شقائه وبلائه، وهو لاه عنه، كأنما يتوهم فى الحياة الخلود، وكان الأصوب أن نقضى هذه الأيام المعدودة التى نعيشها فى الدنيا براحة وسلام، متمتعين بما وهبه الله لنا من الطيبات، لا أن نطمع، ونتطلع إلى ما فيه غيرنا من فضول العيش وكماليات الحياة، ولو تحققنا من أمرهم لوجدنا أن ما لديهم مما يبهر النظر فى الظاهر، لا يساوى ما هم فيه من الغم والهم بطلب الازدياد فى الباطن، ولم نرض أن نتبدل بحالنا حالهم، ولا بما نحن فيه من الرضاء والاكتفاء، ما هم فيه من السخط والغضب.

لقد يتوهم بعض الناس أن من الغضب ما يدل على الشهامة والأنفة وعظم النفس، وليس الأمر كما يتوهمون، لأن تأثر النفس بإساءة المسيء، يحط منها، وينزل

بقدرها عن قدر المسيء، والنفس العظيمة التى تعرف قدرها، وتدرك كرامتها، لا تتأثر بالإساءة، ولا تكاد تحسها، فالانتقام مفقود لديها، لأن ما لا يحس لا ينتقم له، والنفس العظيمة تشبه الصخرة الصماء، لا يؤثر فيها ما ترميها من الحصباء، وكالمجن يرد السهم مكسوراً، والسيف مفلولاً، والحوادث وإن عظمت، لا تحرك النفوس العظيمة، لأنها فوق الحوادث والخطوب، فما أبعدها عن ملامستها، وأنأها عن تأثيرها! وما يتأثر إلا النفوس الضعيفة، والضعف فى النفس كالجرح فى الجسم، إذا مسها أقل شيء تألمت له، فهى أخت «السامرى»، تقول لكل شيء «لا مساس»! ولطالما تأثرت بالعطش والجوع، فأخذتها الحدة وتولاها الغضب، ومن ذلك ما نراه على وجوه الصائمين فى شهر رمضان، من التقطب والعبوس وسرعة الانفعال، وربما تصنعوا ذلك فينهرون أصحابهم، ويشتمون أولادهم، ويضربون خدمهم، ليعتقد الناس أنهم صائمون، وهم يعتذرون لأنفسهم، والناس يعتذرون لهم بالصيام، فأفسدوا شرف العبادات بأقبح الرذائل، وقلبوا أحب أعمال العبد عند الله، إلى أحب الوسائل عند الشيطان فى إلقاء العداوة والبغضاء بين عباد الله، وهم ينامون نهارهم، ويسهرون ليلهم، ويسمرون فيه بأكل لحوم الناس، بعد إفطارهم بلحوم الحيوان، ويؤذون الناس بحمقهم وغضبهم، ثم يزعمون أنهم أدوا واجباً وقاموا بفرض، ولا يعلمون أن الصيام مفروض لتسكين النفوس، وقمع الشهوات، وصفاء الأرواح، ورقة القلوب، ومما يجرى هذا المجرى أن الناس إذا رأوا رجلاً من ذوى البيوتات قد احتد وغضب وشتم وسب، اعتذروا له لأنه من الأشراف أهل البيت النبوى، لحدة فى طباعهم ، فيحطون من قدر أولاد النبى بنسبتهم إلى الحماقة، وليس فوق هذا جهل، لأن الله لم يخلق أحلم من رسوله عليه السلام، وأولاده بضعة منه، وقد تحمل من قريش ما لم يقدر على تحمله بشر، فكم فعلوا به الأفاعيل، ووضعوا على عنقه الشريفة وهو يصلى جلد الشاة وفرثها، فلم يغضب، بل قابل ذلك بالدعاء لهم أن يهديهم الله، وكسروا رباعيته فلم يغضب، بل صار يأخذ الدم بيده ويرمى به فى الهواء، وهو يدعو لهم، خوفاً عليهم أن يستأصلهم الله، وكانوا يقابلونه كل يوم بإهانة جديدة وإساءة بليغة، فكان يقابلهم بالحلم والعفو ويستغفر لهم، مع ما هم عليه، حتى عاتبه الله بقوله: «إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم»، وعفا عن قاتل عمه حمزة (رضى الله عنه)، وقد كان «النضر بن الحارث» من أشد المشركين عداوة للنبى صلى الله عليه وسلم، فأمر (عليه السلام) بقتله حينما لم يقبل الإسلام، فرثته أخته بقافية خاطبت النبى فيها بقولها:

أمحمـد ولأنت ضِنْءُ نجيبـةٍ في قومها، والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما مَنّ الفتى وهـو المغـيظ المحـنق

فقال (عليه السلام) «لو سمعت قولها قبل قتله ما قتلته»، فكيف ينسب الجهلاء لبضعته الطاهرة شيم الغضب والحمق وحدة الطبع؟ اللهم إن هذا بهتان عظيم.

ومن الناس من يغضب في بيته على خدمه إذا رأى إناءً وضع في غير محله، أو عثر على شيء من الغبار فوق بساطه، وقد أباح لزائريه أن يطئوه بنعال وطئت الأزقة المطورة، أو ينزعج من مواء هرة، أو هرير كلب، أو صياح ديك، أو من ضوضاء الخدم فيما بينهم، فيتناولهم بالسب والشتم، ويهم بالصفع واللكم، كأنه يريد أن يكون بيته في سكونٍ كالصحراء لا أنيس بها، وقد كان الخليفة المأمون يتجاوز لخدمه عن تقصيرهم وعبثهم، حتى جرأهم حلمه عليهم، فقد نادى الخدم مرة وكرر النداء، فدخل عليه أحدهم وهو يقول له: «ألا يأكل الخادم ولا يشرب ولا يصلي»، فلم يغضب عليه، ولهذا قيل في مثل ذلك «إذا حسنت أخلاق السيد ساءت أخلاق خادمه»، مع أن هذا الذي تؤذيه أقل حركة في بيته، ويؤلمه أقل انحراف في أوضاع أثاثه يسمع في الطريق من الضوضاء واللغو وفحش القول أشنع ما يكون، ويرى في سيره الأوحال والأوساخ وكل ما يؤلم النظر، فلا يتأذى، ولا يغضب، بل يمر بذلك كله مر الكريم، ويتحمله تحمل الحليم، أفما يكون له بعد ذلك بعض هذا الحلم في بيته، فيصلح ما أعوج فيه باللطف دون العنف؟ ولكن الإنسان يريد أن يتذوق طعم الحكم المطلق في بيته، وإن كان عبداً ذليلاً في بيوت حكامه وأمرائه، وإذا لم يكن للنفس رادع منها تمادت بصاحبها في ضروب الظلم والغشم، وقد كان بعض الحكماء إذا اضطجع في فراش نومه، أخذ يحاسب نفسه عما فعله في نهاره، ثم يقيم من عقله قاضياً عادلاً للحكم عليها فيما فرط منها في نهارها، ولا ريب أن شيطان الغضب يذهب عنه، إذا علم أن أعماله ستعرض كل ليلة على قاض يقضي عليه بالعقاب، وإنه لينام مستريح الفؤاد إذا تحقق أنه قضى نهاره بالصفح والعفو، وإسداء المعروف، وإغاثة الملهوف.

وجملة القول في جميع ما قدمناه إن العمر الذي وهبه لنا الباري (سبحانه وتعالى)، وهو أنفس موهوب، وأحب محبوب، طويل بالتدبير، قصير بالتبذير، وكلنا، وإن

اختلفنا في جل الأمور، قد اتفقنا على التبذير والإسراف في هذا الموهوب النفيس، ولا إسراف الوارث السفيه في مال أبيه، لا يعرف لكثيره قيمة وقت السعة، عرفانه إياها وقت الضيق، كذلك إذا حانت ساعة الأجل، عرفنا قيمة ساعات العمر معرفة الوارث السفيه قيمة الدينار الأخير من ماله، ويود كل واحد منا لو يفتدى ساعة يطول بها عمره بكل ما ملك واقتنى في حياته، وما حصل عليه من جاه ومال، وما أمض ما يتذكره حينئذ، متسائلاً: كيف أضاع الجانب الأعظم من ساعات عمره، وقضى معظم أيامه في غضب وحقد وكراهة وانتقام، ونزاع وخلاف وخصام وشقاق؟ فكم أهرق أوقاتاً نفيسة في الغضب، وغفل فيها عن التمتع والتلذذ، تلك الأوقات المزدانة بالصحة والعافية والغنى والشباب، وفي السنة الشريفة «الدنيا كسوق قامت ثم انفضت» فأي الرجلين يوصف بالعقل والحزم: رجل دخل هذه السوق فقضى وقته في الاطلاع على محاسنها وبدائعها، ثم أخذ منها ما اشتهى، وخرج منها مملوء الوطاب من أطايبها، أم رجل دخلها في الخصام والنزاع والضراب والصراع، ثم خرج منها خالى اليد من المتاع مرضوض الجسم ممزق الثياب، والإنسان يغضب ويحقد ويكيد ويدبر، والقضاء يعد ساعات الأجل فوق رأسه ساعة إثر أخرى، وهو لاه عنه، حتى يختطفه الموت قبل من يكيد له ويعاديه، لم لا يعيش الإنسان إذاً خلواً من العداوات، فيكون مستريح البال، ساكن النفس، محبوباً في حياته، مأسوفاً عليه بعد مماته؟ وما بالنا يضرب بعضنا بعضاً، ويؤذى بعضنا بعضاً، ونحن مصفدون جميعا في سلسلة أطرافها في يد القضاء والفناء! وهلا يشير العقل أن نقضى ساعات هذا الأجل القصير بالهناء لا بالشقاء؟

وجدير بالذكر أن الغضب إذا ابتدأ في النفس ولم يتداركه الإنسان بفضل عقله، اشتعل اشتعال الحريق، واندفع اندفاع السيل، واخترق النفس اختراق الصاعقة للمادة، فلا تتوهمن أنك تضع له حداً أو تقتصر منه على مقدار أو تستطيع أن تمحوه محواً، بل تستطيع بطول الممارسة والتفكير أن تتغلب عليه، وإن أردت أيها القارئ أن تظهر أخلاقك من رذيلة الغضب، فاقرأ ما جمعناه لك في هذا الباب بتدبير وإمعان، وعاود قراءته المرة بعد الأخرى، ليكون على الدوام في ذاكرتك، فيردك بإذن الله عن الاندفاع في سورة الغضب! وقد جربت ذلك في نفسي، فكلما همت النفس الأمارة بالسوء أن تغضب لشيء مما يغضب له الناس، ذكرتها بما جمعته من البراهين في رذيلة الغضب، وأفهمتها أنه لا

يليق بالذى يسطرها ويشرحها أن يستفزه الغضب، كما أننى جربت ذلك فى غيرى أيضاً. كان لى صاحب رضى الأخلاق، إلا أنه حاد المزاج، سريع الغضب، وأكثر ما يكون ذلك إذا رأى تقصيراً من الخدم فى مجلسه أو على مائدته، فيسب ويعلن ويحتقن ويضطرم، فقلت له يوماً فى ساعة صفاء: «إننى أكتب فى الغضب، فهل ترغب فى أن تسمع شيئاً منه»؟ وجئته بالصحيفة التى عددت فيها ما يلتمس للخدم من الأعذار فى تقصيرهم، فتأمل ذلك قليلاً، ثم استحسنه كثيراً، وصرت كلما هم بالغضب على الخادم أذكره بما جاء بالصحيفة ممازحاً، فيرتد فى الحال عما كان يجرى على لسانه فى حدة غضبه، حتى انتهى إلى حالة الاطمئنان، فإذا دب فيه دبيب الغضب صاح قائلاً: ناولنى الصحيفة فينصرف من الغضب إلى الضحك، ومن العبوس إلى البشر.

* * *

ونقول فى مختتم الكلام، إن غرضنا كله هو أن ينتفع القارئ بتدريب نفسه، على حسب ما بيناه فى هذه الرسالة، لا أنه يمر عليها مروره على بقية الرسائل والمقالات، فلا يتذكر ما فيها، بعد ما يطويها، بل يعتبرها مثل تذكرة الطبيب التى دونت فيها صنوف العلاج وتركيبه وطرق استعماله.

والله الموفق المستعان، لما فيه شفاء الأرواح والأبدان.

ساعات الحياة (١)

إن العمر طويل بالتدبير قصير بالتبذير، كما أشرنا إليه فى آخر كلامنا عن الغضب، وكثيراً ما يشتغل الإنسان فى حياته بسفساف الأمور التى تجره إلى الغضب، فيجره الغضب إلى مضايق الأكدار ومنغصات الحياة، فيضيع من عمره أكثره فى الشقاء والبلاء، ألم يعلم أن زخارف الدنيا وبدائعها وذخائرها ورغائبها لا تساوى فى ميزان عقله دقيقة واحدة من عمره، بل إن جميع ما يحتوى عليه هذا العالم من شموسه وكواكبه، أقل قيمة عنده من تلك الدقيقة التى يصرف الآلاف منها فى الأسف والأسى والحزن والندم، إذا لم يبلغ ما أراد من سافل مشتهياته، هيهات أن يعرف ذلك إلا إذا حم القضاء ودنا الأجل فيتمنى أن لو أنفق ما فى الأرض جميعًا لزيادة تلك الدقيقة فى عمره، هلا تذكر ذلك قبل ضياع الفرصة؟ إن الفرصة إذا ولت لا يجدى التمنى ولا يجدى أن ينسب البخل إلى الطبيعة لأنها لم تهب له عمراً طويلا يليق بشرف أعماله من بين سائر الحيوان، إن شكوانا من الطبيعة بهذه الصورة داء قديم استوى فيه العاقل منا والجاهل، وهذا رئيس الطب أبقراط يقول: «الحياة قصيرة والفن طويل»، ورئيس الحكماء أرسطو يشكو من الطبيعة لتفضيلها بعض الحيوانات على الإنسان بطول العمر كالحوت والفيل والغراب والببغاء، فإنها تعيش قروناً، والإنسان وهو سيدها ومولاها، وأعظم قدراً منها وأكرم مقاماً، وأعلى سعياً، لا يكاد يبلغ القرن من العمر إلا نادراً.

والحقيقة أن حظنا من الزمن فى الحياة ليس بقليل، وإنما إسرافنا فيه جعله موصوفاً عندنا بالقلة، والحياة فى الواقع طويلة تسع الأعمال العظيمة لو استعمل الإنسان أوقاته فيما ينبغى على ما ينبغى، أما إذا أضاعها فى الملاذ والشهوات والتكاسل عن العمل، أو فى النزاع والخصام والصراع والضراب دون النافع من الأمور فستأتيه الساعة الأخيرة على عجل، فإذا الحياة التى لم يحسن تقديرها قد ولت على عجل.

---

(١) م ش ٤٢-٤٨/٢ فبراير - ٢٣ مارس ١٨٩٨ (تحت عنوان «أيام العمر»).

وإذا كانت الطبيعة لم تهب لنا حياة طويلة فالواجب علينا ألا نعمل على تقصيرها والتفريط فيها، وحياتنا واسعة لمن يحسن التصرف فيها، وهى كالثروة فى يد الحازم المقتصد يثمرها وينميها، وليست كالثروة في يد الوارث السفيه يذريها ويسفيها.

من ذا الذى يبرأ من وصمة السفه والتبذير فى أيام عمره؟ فهذا يقضيها فى جمع المال وادخاره، فينظم عقود الآلاف فى خزائنه، وينثر عقود السنين من عمره، فيبغته الأجل وقد انتظم له ما ينتفع به غيره من وراثه، وانتثر منه ما ينتفع به من أيام حياته، وهذا يصرف أوقاته فى التلهى بالملاذ والشهوات وهو فى غفلة مسترسلة، فتحل ببدنه الأمراض والأسقام وهى رسل الموت، وهذا يطمع فى أشياء كثيرة ليس إلى الوصول إليها من سبيل، فتذهب حياته ضياعاً فى الكدر والشقاء، وهذا يستظل بظلال الكسل والراحة فيذهب عمره سدى، وهذا يخاطر بنفسه ملقيًا بها فى المهالك لربح يربحه وهو غنى عنه، فيموت ذاهلاً بين المخاوف والمتاعب، وهذا مشغوف الفؤاد بحب المعارك والوقائع، فلا ينتهى عمره إلا بالوقوع فى التهلكة أو إيقاع غيره فيها، وأكثر الناس يحسدون غيرهم على أرزاقهم، ويقضون حياتهم فى الشكوى من القضاء والقدر، وآخرون ليس لهم مقصد معروف، ولا مسلك مألوف، ولا غرض معين، ولا سبيل بين، فهم يسيرون مع كل ريح، ويندفعون مع كل تيار، ويتنقلون من عمل إلى عمل قبل إتمامه وجنى ثماره، وغيرهم حيارى بأنفسهم، يقضون الحياة بين التردد والتذبذب وفتور الهمم وانحلال العزائم.

وقصارى القول إننا لا نحيا إلا جزءً يسيراً من أعمارنا وما بقى منها لا يسمى حياة، وإنما هو وقت يمضى وأيام تمر، وقد أحاطت بنا الأهواء والرذائل من كل جانب، فلا تترك لنا وقتًا نتمكن فيه من اتجاه أنظارنا نحو الحقائق والانتفاع بها.. وإن كان لنا فترة بين عواصف تلك الأهواء والشهوات فإنما نقضيها فيما تخلفه لنا من الجمود فى النفس والوهن فى الجسم، كما يقضى راكب السفينة وقته بعد اضطراب البحر من الأعاصير والزوابع، ولا تظنن أن تضييع العمر والتبذير فيه من شأن العامة من الناس وحدهم، بمشاغلهم المختلفة، وضروراتهم المتنوعة، وحاجاتهم المتعددة، وجهلهم بالحكمة العالية، بل تضييعه والإسراف فيه من الخاصة وعلية القوم أكثر وأعم، وإذا تأملت أحوال هؤلاء الذين يعدهم الناس بينهم أغنياء وأقوياء وأعلياء سعداء، وجدت أنهم لأعمارهم

أعظم تضييعاً، وأبلغ تبذيراً، لاتساع دائرة أشغالهم، وانفراج زاوية أفكارهم وأوهامهم، وحسبتهم كأن بهم مساً من الشيطان، وهم مقبلون مدبرون في هيجاء من التحاسد والتباغض والمباهاة والمباراة، يهجمون على غيرهم تارة، ويدفعون عن أنفسهم أخرى، فهم بعيدون عن السعادة بعدهم عن الحكمة.

وإذا أنت رجعت إلى نفسك، وجمعت ما تشتت من أفكارك، ونظرت نظرة الحكيم إلى أوقات حياتك رأيتها، إما مسلوبة منهوبة منك، وإما ضائعة تحت طيات الغفلة وإما متروكة بإهمالك، وأسوؤها حالاً وأكبرها معرة ما ذهب منها بطريق الإهمال، وعلى ذلك كل العمر ينقضى فيما لا ينبغي، ومن ذا الذى يعرف قيمة الزمن، ويقدر الحياة قدرها، ويعلم أن كل لحظة هى جزء من فنائه، وأن أنفاس المرء خطاه إلى أجله ومن الخطأ أن تظن أن الموت سكون بعد حركة، إنما الموت هو انقضاء لحظات العمر على التدريج، فإذا أدركنا ذلك وتنبهنا إليه، قبضنا على أوقاتنا قبض البخيل على دراهمه، وأنفقنا منها ويدنا ترتعش، كما ترتعش يد الشحيح عند الإنفاق، ولئن كان البخل بالمال رذيلة إن البخل بالعمر فضيلة، فإذا فعلنا ذلك كانت أوقاتنا حاضرة لدينا بملكنا، وانحل عنا ارتباطنا بالمستقبل المجهول، وعشنا فى حقيقة ما نملك فى الحاضر، لا فى وهم ما لا نملك في المستقبل. وكانت ساعاتنا الحاضرة خيراً من سنتنا الآجلة، واعلم أن كل ما فى هذا العالم مما تظنه ملكاً لك هو خارج عن قبضتك إلا الزمن؛ فإنه الملك الصحيح الذى وضعته الطبيعة فى أيدينا.

وأغرب كل غريب فى أعمال الإنسان أنه يحرص على الأشياء التافهة التى يقدر على الاستعاضة عنها إذا فقدها ويقوم بشكر من يحتفظ له بها، ولا يعتني بالزمن الذى لا يعوضه عنه شيء فى الدنيا، بل ربما شكر من أضاعه معه، ثم تراه كالأسد يكاد يفترس من تعدى على بعض ما يملكه؛ ونراه يرضى عمن تعدى على أوقاته بالسلب، ولو سلبه سالب ساعة من معدن الحديد لم يرض عن القضاة إلا إذا حكموا عليه بالحبس والتنكيل، لكن إذا سلبه ساعة من معدن الزمن ضاعف له العطاء، وأجزل الإحسان، وزاد له فى الحمد والشكران، وطلب منه العودة لمثل هذا الخسران.

ولن تجد إنساناً يقدر أن يقول لك إنه استعمل جميع أوقاته فيما ينبغي، وأنه لم يخسر في حياته وقتاً ما، وأحزم الناس من يدرك أنه يخسر من أوقاته، والسواد الأعظم

منهم يخسرون أوقاتهم ويدركون أنهم يخسرونها، ولا يحسون هذه الخسارة إلا فى وقت الحاجة إليها عند دنو الأجل، هناك يعرف الإنسان قيمة الزمن الذى طالما طلب من صاحبه ونديمه وقت الصفاء أن يصرفه معه فى اللهو واللعب، أو يقتله معه، على ما فى تعبيرهم، وهو فى الحقيقة إنما يقتل نفسه.

ولو أنك سألت رجلاً بلغ أقصى العمر أن يعرض عليك حساب أيامه بالتفصيل، فيما أضاعه فى النوم، وفى حاجات بدنه، وفى لبس ثيابه، وفى القضايا والدعاوى، وفى الانتظار، وفى النزاع مع الخدم والخصام مع الأقران، وفى خيالات الحب وأوهام العشق، وفى المرض وفى النرد والشطرنج وورق القمار، وفى التفكير والتدبير لدس الدسائس، وفى الحزن والكدر، وفى مقابلة الثقلاء وتكلف المحادثة مع الجلساء- لوجدته لم يعش شهراً واحداً من ذلك العمر الطويل لنفسه، إن الناس قد أجمعوا على نسيان الموت، فبنوا أمورهم على الخلود، فهم ينفقون أوقاتهم بغير حساب، وليس يخطر لهم ببال سرعة مرور العمر وقرب نفاده، إلا إذا اختطفت المنون على مقربة منهم قريباً من أقاربهم أو صديقاً من أصدقائهم، هنالك ينتهبون لأنفسهم بعض التنبه، ويتذكرون بعض الذكرى، ويعلمون أن الموت حق، ومع ذلك تراهم يختلقون الأعذار فى أسباب الموت، ويتساءلون عن الداء الذى أعقب الموت، ليعلموا أن الموت إنما حل بسبب داء عضال وليطمئنوا على أنهم بعيدون عنه كأن الموت لا سبيل له على ابن آدم، إلا من هذا الطريق، ثم لا تلبث هذه الذكرى فيهم أن تزول بانهماكهم فيما هم فيه، وأن تذهب فى تياره ذهاب الغثاء فى السيل المنحدر، ثم هم يعودون إلى الاشتغال بأعمال المخلدين، ولهذا تراهم يعطون غيرهم من أوقاتهم عطاء من يمنح من بئر لا تنضب، مع أن اليوم الذى يجود به الإنسان على غيره من عمره أو يقضيه فى سخيف من الأمر، قد يكون آخر غرب من ذلك القليب، فيجب علينا أن ننفق من أوقاتنا إنفاق من يعلم أنه سيموت غداً، لأنك إذا نظرت إلى تراكم المهالك وتقاطر الأخطار علينا، من فوقنا ومن تحتنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا، وإذا التفت إلى كاتب الأمراض والعلل التى لا تزال تدأب فى الهجوم علينا لتدمير هذا البدن الضعيف، تيقنت أننا جماعة أسرى فى سلسلة أمام السياف يأخذ منها واحداً بعد واحد، لكنك إذا نظرت إلى اتساع مطالبنا التى لا ينتهى منها مطلب إلا أعقبه مطلب، وإلى ما ترمى إليه إرادتنا من الغايات البعيدة تخيلت أننا قوم كتب لهم الخلود فى الدنيا

فكأنه لا تؤثر فينا المخاوف، ولا تفعل فينا النوازل المنتشرة على وجه الأرض انتشار الغبار عليها، ولا يدركنا العطب، ولا يبلى منا البدن، بل كأننا انتقلنا من سكنى الغبراء إلى سكنى السماء، وانتفضنا من صور الأجسام البالية إلى مجردات غير فانية، وإنما نحن فى غفلة عن أيام العمر، وذهول عن قدر الحياة.

ولو أن إنساناً علم أنه لم يبق له من عمره إلا ثلاثة أيام، وكان شجاع القلب كعلى كرم الله وجهه لا يبالى أوقع على الموت أم الموت عليه وقع، لظهر لك أن ما يعمله فى هذا الظرف اليسير من الزمن يسع كثيراً من الأعمال، كمثل الذى يتأهب للسفر، فإنه يقضى فى قليل من الوقت كثيراً من العمل، فلو أنه استعمل أوقات عمره على هذا النسق، ولم يصرفه فى الباطل، لتبين له أن العمر متسع فسيح.

ومما نضربه لك مثلاً فى الحرص على الوقت واستعماله استعمالاً نافعا، ذلك العالم الألمانى من أهل القرن الماضى رأى أن يستعمل مدة الانتظار التى لا يخلو منها إنسان بين جلوسه على المائدة وحضور الطعام فى عمل نافع، فكان يصرفها فى التأليف حتى صدر عنه كتاب من أعظم الكتب قدراً ونفعًا سماه «الدقائق الخمس قبل الطعام». ولو أننا حسبنا ما يتجمع من هذه الدقائق الخمس التى نصرفها عبثاً فى مدة عشرين سنة لكان خمسة وسبعين يوما من خالص الزمن ولبابه، ولا يكاد الإنسان يحصل على مثل هذه المدة فى سنة من سنيه خالصة له من الشوائب، فانظر إلى هذا العاقل كيف قضى ما يضيعه كل إنسان من مثل هذه المدة فيما ينفعه وينفع الناس.

ومن الناس من يؤجل متعته بالحياة ولذة العيش وراحة البال إلى أجل يقدره وعمر يسميه، فيقول: «إذا وصلت إلى الخمسين التفت إلى استصفاء أوقاتى لنفسى؛ فأنبذ المناصب ومعاطبها، والمراتب ومتاعبها، وأعيش فى راحة وصفاء، ولذة وهناء» فيتصرف المسكين فيما لا يملك، ويحكم على ما لا يعلم، ويقضى على ما لا يدرى، والقضاء واقف على رأسه يحل ما يعقد، وينقض ما يبرم، ويبدله بالتأجيل التعجيل:

والمرء كالحاكم فى المنام ... يقول إنى مدركٌ أمامى

فى قابل ما فاتنى فى العام ... والمرء يدنيه إلى الحمام

مَـرُّ الليالـى السـود والأيـام إن الفتى يصبح للأسقـام

كالغرض المنصوب للسـهام أخطـأ رامٍ وأصـاب رامِ

ومن الخطأ الفاضح، والخطل الواضح، ألا يختار الإنسان لراحة نفسه إلا الجزء الأخير من عمره– وقصيراً ما يكون– لنزهة أفكاره فى فراديس هذا الملكوت وذخائر هذه الطبيعة وبدائع كنوزها وجمال صنعها وتكوينها، فكأنه يريد أن يدخل الدنيا فى إبان الخروج منها.

ولقد انطقت متاعب العلاء ومشاق المناصب أعاظم الملوك والقياصرة، الذين يحكم لهم بالسعد وطيب العيش فى هياكل العظمة والجبروت، بكلمات لو علم البائس الفقير ما وراءها من الهموم والغموم لاستصغر ما استعظم من أمرهم، ولأيقن أنه هو المتنعم المغبوط دونهم.

فمن ذلك أن ملكاً من أعظمهم قدراً، كان يلهج دائمًا فى كثير من كلامه بقوله: «متى أعيش لنفسى يومًا واحداً من أيامى؟»، وكانت كل أمنيته أن يخلو من مشاغله لينال هذه البغية، فلما علم أن لا سبيل إليها كتب إلى كبراء دولته يقول لهم: «لا أزال أتطلع إلى التفرغ عن الأعمال لأعيش لنفسى لا لغيرى ما بقى من عمرى؛ ولكنى علمت أننى لا أطيق ذلك الآن فسلمت لحكم الضرورة وهأنذا باق فى المشاغل والمتاعب لا لذة لى فى الحياة إلا الأمل فى الوصول إلى غرضى الذى أتطلع إليه يوما من الأيام»، وآخر مثله كان يقول «أنا الرجل الوحيد الذى لم ينل إجازة يخلو بها من مشاغله، وهو الذى يعطى الإجازات غيره».

واعلم أن الحاكم أو الوزير إذا جلس فى دسته واستقل بمنصبه فقد نسى نفسه، وكأنه مات فلا يبعث إلا وقت الفراغ من عمله، ومنهم من يتصل نسيانه لنفسه إلى ما بعد ذلك أيضاً، فقد حدث أن «اللورد بيكنسفلد» وزير إنكلترا تقدم ليركب مركبه مع زوجه فلما دخلت المركب بعده وأقفلت بابه أصابها فى إصبع من أصابعها فلم تتقزز لذلك الألم الشديد، وكتمته فلم تظهر عليها علامة من علاماته مسافة الطريق، حتى أوصلت زوجها إلى وزارة الخارجية، وعادت فاستدعت الطبيب، فلما رجع زوجها ووجد الطبيب مع أهلها بجانبها وعلم ما جرى، أخذ يعتب عليها فى تحملها الألم وكتمانها الأمر عنه، فقالت:

«خشيت إيقاظك من الاستغراق في الفكر، فأقطع بذلك سلسلة اشتغالك بتدبير أمور الدولة».

ونوادر الاستغراق في الفكر والذهول عن الحياة وطول النسيان كثيرة مستفيضة، منها «ساعة نيوتن» التي رماها في الماء المغلي بدل البيضة التي كان يريد أن يأكلها، فهل كان هذا العالم العظيم عائشاً لنفسه؟ كلا! وإنما أراد أن يموت في الحياة ليعيش بعد الممات، وشبيه بهذا أحد المبذرين المسرفين في أوقاتهم، فقد كان يلعب بالنرد فأحس العطش، فطلب ماء ليشربه، فلما جيء به تناول الكوب بيده فرمى به في النرد، فهل يستطيع هذا اللاعب أن يعد نفسه من الأحياء، في ذلك الوقت الذي اختلسه النرد من زمنه النفيس، وعوضه عنه ما ينتهي إليه اللاعبون من النزاع والصراع؟ ومما شاهدناه من نوادر الذهول أن «المسيو كاروليدس»- أحد كبار العلماء المقيمين في الآستانة- اشترى ذات يوم سمكاً صغيراً فلفه في غلاف من الورق ووضعه في جيبه وذهل عنه ذهول العلماء، فكان كلما دخل على أصحاب له شموا رائحة كريهة، فيقومون يبحثون في أركان المكان فلا يجدون شيئاً، ولما تكرر ذلك في بيت آخر تذكر ذلك السمك، فأخرجه من جيبه منتناً فضحك الحاضرون، واشتهرت عنه تلك الحكاية في الآستانة.

وكان أحد السفراء يمشي في شوارع الآستانة في يوم مطير، وعلى رأسه مظلته تقيه المطر، فذهل عنها وعن وقايتها له، ووقف على باب حانوت ليشتري مظلة، وعند ما أراد أن يضع يده في جيبه ليدفع ثمنها أدرك أن المظلة الأخرى في يده وعلى رأسه.

ومن ذلك الحكاية المشهورة بين المصريين التي يروونها عن أحد الأجانب من قضاة المحكمة المختلطة بالمنصورة، وهي أنه دعا جماعة من إخوانه للغداء عنده في الغد، وذهل أن يخبر طاهيه، فلما حل الميعاد وحضر الضيوف لم يجدوا عنده ما يأكلونه فاعتذر لهم بذهوله، ثم عزم بعد ذلك على دعوتهم ثانية ليعوضهم عما فاتهم، فبدأ بأمر طاهيه أن يصنع طعاماً يكفيهم ثم ذهل عن دعوة أصحابه، ولما حضر إلى البيت وجلس على المائدة وجد أصنافاً كثيرة فسأل الطاهي عن سبب ذلك، فذكر له ما أمره به، فبهت الرجل من ذهوله.

ومثل هذا كثير مستفيض بين الناس فهل يعده العاقل من الانتفاع بأوقات العمر والتمتع بالحياة؟

وقد اتفق الحكماء على أن معرفة الحياة ووجوه الانتفاع بها علم، هو أصعب درساً وأشق تحصيلاً وأبعد تناولاً من بقية العلوم التى يجوز أن يبرع فيها من لا يزال فى سن الصبا، أما علم الانتفاع بالحياة فلا يبلغه إلا من بلغ السن العالية، ولم يتقنه أحد فى هذا العالم سوى بعض الأفراد من جهابذة الفلاسفة، بعد أن نبذوا المال والجاه، ورفضوا المناصب والمراتب، واجتنبوا الملاذ والملاهى، ليتفرغوا للاشتغال بمعرفة الحياة والاستعداد ليوم الممات، والغايتان المقصودتان من الفلسفة والحكمة هما عندهم: أن يعرف الإنسان كيف يعيش، وأن يعرف كيف يموت، ولهم فى ذلك مذاهب متعددة وطرق مسلوكة.

والشرط الأول فى الانتفاع بالحياة، هو أن يحفظ الإنسان أوقاته من الضياع، فلا يجعل لاختلاسها من يده سبيلاً، وصاحب العمر الطويل فى الحقيقة هو الذى لا يجعل أوقاته تحت تصرف غيره، بل يجعل التصرف فيها لنفسه، ويدرك قيمتها.

وإذا تأملت أحوال الناس وأطوارهم علمت أنهم لا ينتفعون بأوقاتهم الحاضرة ولا يتمتعون بها، بل يحيلون التمتع بها دائمًا على المستقبل، حتى إنك لترى الفاتح المنتصر يذهل عن الانتفاع بلذة الانتصار الحاضر، ويحيل على المستقبل أماني له وآمالاً، فيهمل التمتع بأعظم ثمرة حاضرة بين يديه، وهى الانتصار، ولكنه يحيل على المستقبل بلوغ أمنية أخرى أعظم من انتصاره، وهى أن يستريح يوماً من الأيام، ويتمتع بالحياة وقتاً من الأوقات، ونرى أرباب المناصب والمراتب التى يعتبرون الوصول إليها من أكبر ضروب السعادة فى الحياة، إذا وصلوا إليها لم يزل فيهم تطلع إلى المستقبل رجاء الوصول إلى التمتع بالحياة؛ ويودهم لو كانت الأيام كلها جمعًا وآحادًا، ومواسم وأعياداً، يستريحون فيها من عناء المناصب.

أما من يقضى حياته لنفسه، ويدبر أوقات يومه، فهو الذى يذوق لذة الحياة ورغد العيش، ويكون اليوم الذى يأتى بعد يومه عمرًا جديدًا قائمًا بذاته.

وإن ابيضاض الشعر ، وانحناء الظهر، وسقوط الأسنان وكثرة السنين، لا تدل على أن صاحبها عاش كثيراً، وإنما تفيد أنه أقام على الأرض كثراً.

وإذا تأملت هؤلاء المحسودين من أرباب المناصب والرتب العوالى، ممن إذا تنزلوا

ونظروا إلى الناس كان نظرهم شزراً، وإذا منوا بالتسليم عليهم سلموا بأطراف أناملهم، وجدتهم كلهم أُجراء قد أجَّروا أنفسهم، وقدروا لأعمالهم ثمناً يستوفونه، ولم يقدروا لأوقاتهم قيمة أو ثمناً، فتراهم يدا ملأى بالدراهم وأخرى فارغة من الزمن، فاذا اعتراهم المرض يوماً من الأيام أدركوا فيه قيمة الزمن، وعرفوا مقدار الحياة، فتنحط تلك الأنوف الشوامخ على يد الطبيب لتقبيلها، عسى أن ينقذهم من مخالب الموت، ويرد عليهم بعض ذلك الزمن الذى لم يكن لديهم من قبل المرض شيئاً مذكوراً، وودوا لو يفتدون بما فى العالم كله ساعة واحدة من الزمن أضاعوا أمثالها وهم لا يدرون قيمتها، فما هذا التضارب وما هذا التناقض؟ ولو انكشف عنهم الحجاب، ورأوا ما بقى لهم فى جريدة أعمارهم من أعوام وأيام، ووقفوا على مقدارها وقوفهم على ما مضى من أعمارهم لفزعوا أى مفزع من قلة الباقى، ولأدركوا قيمة التدبير والتوفير فى أوقاتهم التى أضاعوها سدى وأنفقوها بدداً.

من الممكن أن يملك الإنسان الدنيا بحذافيرها، ومن غير الممكن أن يملك ساعة فاتت من عمره ليردها، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وترى الحياة تسيل بالإنسان من منحدر عالٍ إلى هاوية الموت، «ومن يرد سبيل العارض الهطل؟» وقد ذهل المسكين عن كل هذا، ونسى أن يصلح من أوقاته، وكأنه فى سيرته يعمد إلى إصلاح حياته بفقد حياته، فهو يعيش فى المستقبل فيفقد به الحاضر، ويهمل ما فى يده ليتمتع بما فى يد القضاء.

وإنك لتجد من تراهم عامة كهولاً وشيوخاً قد خرجوا من الحياة ونصيبهم منها لا يزيد على نصيب الأطفال والصبيان، لإدراكهم الشيخوخة دفعة واحدة بما ذهلوا عنه من التمتع بأوقاتهم، فحالهم فى ذلك كحال المسافر، بينما هو يتلهى فى قطع طريقه بسماع قصة أو قراءة حكاية، إذ هو قد وصل إلى المكان الذى يقصده، وقد فاتته معرفة ما كان فى طريقه وتقدير التدرج فيه لاشتغال نظره وفكره.

ومعلوم أن الحياة تنقسم ثلاثة اقسام الماضى، والحاضر، والمستقبل. أما الماضى فهو وحده ذخر ممتنع لا تصل إليه يد الحوادث، وأما الحاضر فسيال لا يكاد ينحجز، وأما المستقبل فمجهول فى يد القضاء. أما الماضى فأكثر الناس لا ينتفعون به لأن

انصرافهم الانصراف كله نحو المستقبل لم يدع لهم مهلة للنظر فيما خلفوه وراءهم، ولو فرضنا أنهم وجدوا مهلة ذات مرة للفتهم عنها خوفهم أن يمر على فكرهم ما فرط منهم فيه مما يجدد الأسف والندم، ولا يتذكر الإنسان ماضيه إلا مجبراً بسوء تصرفه فيه وما ارتكبه من الخطأ والزلل، ولا يجلد على النظر فيه إلا من كانت أعماله الماضية موزونة بالقسطاس المستقيم، صادرة عن سلامة الحكم وطهارة الضمير وشرف الأخلاق. على أن الماضى هو الكنز الوحيد الذى يملكه الإنسان ويدخره من عمره، فيجب عليه دوام النظر فيه للانتفاع به، سواء أكان ممتلئاً بصور الحسنات، أم مشحوناً بصور السيئات، أما صور الحسنات فيتذكرها الإنسان ليتمتع ويتلذذ مرة بعد أخرى، كصورة الأليف يحفظها الآلف عنده فيتمتع برؤيته بعد زواله، وهذه اللذة وإن كانت خيالية تمتاز عن الحقيقة بأنها تامة كاملة تقدر عليها، وتتمكن من امتلاكها، بخلاف حالتها، وهى حقيقة فى الحاضر لما يلابسها من الآفات والعوارض والموانع التى ربما حالت دون تمامها وكمالها وضبطها فى الملك بهجوم المستقبل عليها، وأقرب شاهد على ذلك أنك تجد الكبراء من المنعمين المترفين إذا ارتد أحدهم مرة إلى ماضيه، فتذكر أكلة حقيرة أكلها فى زمانه على شهوة للطعام أزرت لديه لذتها بما يكون أمامه من صنوف الألوان النفسية، فلا يفتأ يتشدق بها فى مجالسه، ولو كان للمسكين من أعماله الماضية ما يدخل فى الأعمال الصالحات، لكان تذكره للاذها المعنوية فوق ما يلقاه من لذة التذكر لتلك الأكلة التى لم يبق منها إلا معناها أيضاً، وأما صور السيئات فينتفع الإنسان بالرجوع إليها لعظة بها، وليكون ما يجده من الألم عند تذكرها عقاباً يزجره عن استئناف أمثالها، وأما الحاضر فهو قصير وجيز، حتى إن بعض الحكماء الباحثين عن حقائق الأشياء ذهبوا إلى إنكار وجوده بتاتًا؛ لأنه سائل تيار وذاهب طيار لا يتصل إلا ريثما ينفصل، ولقد بالغوا فى ذلك حتى قالوا: إنك إذا نطقت بجملة «أنا موجود الآن» فهى غير صحيحة لأن مسافة النطق بها استوفت آناً من الزمن فى مضيه، وهذا الحاضر لا يقف فى حركته كما لا تقف الكواكب فى حركاتها الأبدية؛ لدوام انتقالها عن كل حيز وإن كان يخيل لك فى رؤية العين إنها ثابتة مستقرة فى مكانها.

واعلم أن هذا الحاضر الذى لا تقدر أن تثبت وجوده من سرعة حركته هو كل ما فى ملك الإنسان بعد ذلك الماضى الذى شغلته المشاغل عن الرجوع إلى التعلل به، فإذا أردت أن تعلم مقدار قصر الحياة فى اعتبار أولئك المشتغلين بدنياهم علمته من طول

تطلعهم إلى طول الحياة، كأنهم لم يعيشوا من دهرهم يوماً واحداً، فترى الشيخ الفانى، وهو باسط كفيه إلى السماء، يتضرع إلى الله أن يزيد فى عمره بضع سنين، فإذا سألته عن عمره أخفى عنك جزءً منه، فهو يريد أن يغشك، ويغش نفسه، ويغش القدر، ليكون عمره دائماً محلاً لقبول الزيادة، فنحن والعمر على طرفى نقيض نسعى للبقاء وهو يسعى للفناء.

ومما يضحك فى هذا الباب، أن رجلاً من كبار العلماء فى الزمن الماضى ولعله أبوعبيدة مرض مرضاً شديداً، فعاده أحد أصحابه وقال له عند مفارقته: أسأل الله لك الشفاء القريب من هذه العلة، فقال له: وكيف يرجى الشفاء من مثلها بعد التسعين؟ ثم مضت الأيام على ذلك وعوفى الشيخ من مرضه، فكان أول عمل له فى بدء نقهه أن سعى على قدميه، حتى وصل إلى بيت ذلك العائد وقال له أول كلامه: سألتك بالله أن تكتم على ما أفضيت إليك به من مقدار سنى.

ومن هذا القبيل أن لنا صاحباً كبير السن، فإذا سألناه عن سنه انفلت من السؤال بالحدة والغضب، وإذا جر الحديث معه إلى حساب مدة عشرتنا له وهى طويلة أحس الحبالة المنصوبة له، لما يترتب عليها من الاستدلال على مقدار سنة، ففر إلى الخوض فى حديث غيره.

وإننا لنرى كثيراً من الواقفين على تعريف الزمن فى سرعة حركته، كما عرفنا ذلك، يكفون أبصارهم عن تلك السرعة، ويقفون بأعمارهم فى نقطة لا يحركهم منها مر السنين والأعوام، فإذا وقف أحدهم على الخمسين مثلاً، لا يتزحزح عنها كلما سئل فى كل عام، ولا نكثر عليك من هذه الأمثلة، فكلنا نعرف ذلك من أنفسنا.

وترى هذا الحاضر، الذى يمر مر البروق ويجتهد الإنسان فى تمديده وتطويله، مضاعفاً فى أيدى الناس تشغلهم المشاغل فيه عن التمتع به، وكأنى بك تظن أنه كلما خلا الإنسان من العمل والشغل فى أوقاته، ازداد تمتعا بطيب العمر. ومن أقام على البطالة والفراغ امتلك أوقاته، وصان أيامه! كلا فليس الأمر كما تظن؛ فإننا نعد المقيم على التعطل والفراغ أعظم ذهولاً عن حاضره، وأضيع عمراً من سواه، وأشغل أوقاتاً من غيره، وكما أنك لا تحكم على من يشتغل بخصومة من الخصومات وواقعية من الوقائع، أنه عاش لنفسه فى ذلك اليوم الذى أفناه فى ذلك الشغل، كذلك لا تحكم

على ذلك الفارغ المتعطل، الذى يقضى يومه بين مضاربة الديوك، ومسابقة الخيول، وتزيين اللباس، وتحسين الزى، والاشتغال بعبث الحديث ولغو القول، أنه عاش لنفسه لحظة من الزمن فى يومه.

ولست بواجد فرقاً بين طبقات الناس فى اشتغالهم بالوقت الحاضر وذهولهم عنه، بين هذا الذى يطوى يومه فى اشتغال الفكر باستخراج الذهب من النحاس، أو استخراج أعداد الجمل من الألفاظ، أو المشتغل بتصفيف آنية بيته، أو القائم على بناء قصره، وبين ذلك الذى يحاول مالا ينال من عظائم الأمور ومصاعب الأعمال، ابتغاء صيت يحوزه أو مال يقتنيه، ملكنا فى الذهول عن الوقت الحاضر سواء المشغول منا والفارغ، والسارى والسارب، والقاعد والراكب.

أما المستقبل فخارج عن يد الإنسان خافٍ عليه، وهو فى خفائه عنا كخفاء النكت السوداء التى كشفها «هرشل» فى قرص الشمس، وفى بعده عن ملك يدنا كبعدها عنا، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً، وما تدرى نفس بأى أرض تموت.

ولكن من سوء حظ الإنسان ونكد عيشه أنه ينسى الماضى، ويذهل عن الحاضر، ويصرف همه كله إلى هذا المستقبل المجهول، فيعيش فى الوهم الباطل حتى تدركه منيته.

فترى الواحد منا إذا اضطجع فوق فراشه فتح لعينيه باب الخلود، فيلج فيما لا نهاية له من الآمال والأمانى، وابتناء القصور والعلالى فى خياله، بعد أن قضى نهاره فى هدم بناء العمر، فيقتل لذة العيشُ الحاضر ركوناً إلى حياة المستقبل، ويحرم نفسه التمتع باللذة القائمة، انتظاراً للذة غائبة، فيبيع عاجلاً بآجل وحقيقة بوهم، ولو أن مستقبل العمر مضموناً، ونعيم العيش فيه شيئاً محققاً، لكان من العبث وأفن الرأى أن يشتغل الإنسان بشىء قبل حدوثه ويرمى لآجله بما فى يده من الشىء الحاضر، هباءً منثوراً! فما بالك والمستقبل مجهول موهوم، والعيش فيه مغيب مكنون، لا يزال الإنسان هكذا هائماً فى العيش الباطل حتى يدركه الأجل الحق، فيموت وهو لم يعيش بعد. ولقد ألقت الحكمة على لسان قدماء الرومانيين تعبيرهم فى لغتهم عن الميت فيقول عاش فلان، لا مات فلان.

ولقد تهالك الناس فى التطلع إلى المستقبل، والتعلق به حتى كادوا يصلون أعناقهم المشرئبة إليه بالعوالى والرماح، كما وصف المعرى حنين الإبل إلى أوطانها عند تطلعها إلى البرق اللامع من أفقه:

إذا غاب عنها سرها لو رؤوسها   تمد إليه فى رؤوس عوالى

أو كما قال أحد حكماء هذا العصر: قد أفرط الناس فى التعلق بالمستقبل حتى أشبهوا حمير إيطاليا، يجيء سائق الحمار بشيء من الحشيش الأخضر فيربطه فى طرف عود، ويربط الطرف الآخر بين أذنى الحمار ليصير متدليًا أمام عينيه، فيرمقه الحمار ويحاول الإسراع ليبلغ فاه وما هو ببالغه، ولقد يتجلى لك ذلك بأوضح بيان فى أهل السياسة وفى كثير من أرباب مرافق الحياة، وأخص بالذكر منهم هؤلاء المشتغلين بأعمال البيوت المالية، يتمنى أحدهم أن يسقط من عمره شهر سبتمبر مثلاً ليأتيه شهر أكتوبر بالربح الذى قدره للأسعار فى خياله، فيجيئه هذا الشهر المتمنى بغير ما حسب وقدر، فيقع المسكين فى خسارتين: خسارة عمره، وخسارة ماله، بعد أن أصفر وجهه اصفرار الذهب الذى يطلبه، واضطرب قلبه اضطراب أسلاك البرق التى ينتظر أخبارها، وقد روى عن «روتشيلد» الملقب بملك البيوت المالية أنه لا يكاد يجلس على مائدة طعامه، حتى يقوم ليكلم سماسرته المرة بعد الأخرى، فهل تحسب هذا الطعام الذى يطعمه هكذا متقطعا طعاما يلذه أو يمرئ جسمه؟

وقس على ذلك أولئك المنهمكين فى القمار والميسر، فإنهم إن ربحوا، وقليلاً ما يربحون شيئاً من المال، فقد أضاعوا الكثير من العمر، بعد أن أفسدوا أمزجتهم باضطراب النفس وسهر الليل، فتنتابهم العلل والأمراض، وكان لى صاحب دخل عليه أهل قرابته فى يوم عيد للتبريك، فوجدوه يلعب بالشطرنج، فلم يعبأ بهم ولم يرد لهم سلاماً، لاستغراقه فى اللعب، فخرجوا غضاباً، واشتجرت بينهم العداوة، ولم يقبلوا عذره بهذا الاستغراق.

ومن هذا القبيل أيضاً أولئك المرتزقون بالمرتبات الشهرية، فإنهم يتمنون انقضاء الشهر ويودهم لو ينامون نيمة كهفية طول الشهر ويقومون فى آخره.

ومنهم الذين يتفرغون للانتظار، فإنك إذا تكلمت مع أحدهم وهو ينتظر أمراً من الأمور التافهة، لم يفهم منك ما تقول لموت حواسه بالانتظار، فهؤلاء كلهم قد ماتوا فى الحاضر لتخيل الحياة فى المستقبل، فاذا جاءهم المستقبل وصار حاضراً أهملوه وتركوه، وتعلقوا بمستقبلٍ آخر، فتذهب حياتهم وما كانت حياة بل موتًا فى الحقيقة.

وقد عاش الناس دهرهم بين أقصى المدنية الهمجية يتطلعون إلى المستقبل، ويلتمسون علم الغيب ويسلكون لذلك طرقاً جمة ويأخذون بأسباب شتى، من الكهانة والطير والفأل، وضرب الحصى وتخطيط الرمل ومنازل النجوم، وحساب الجمل والزايرجة والجفر، والودع والورق والتنويم والمندل، حتى بقايا القهوة فى الفنجان، دع الأولياء والمشايخ وأصحاب الكرامات وسدنة الأضرحة والمجاذيب والبله، لا فرق بين الناس فى الإيمان والتصديق بذلك فهم فيه سواء، ذلك الذين يدين بالقرآن ويتمسك بالإيمان يحاول أن يطلع على الغيب بهذه الوسائل المختلفة، ويخالف مقالة قرآنه وحديث نبيه: بأن علم الغيب عند الله قد استأثر به دون الخلق ودون أنبيائه، وذلك الذى يدين بالشيطان فى زندقته وإلحاده، ينكر وجود الخالق ويعترف «بالميديوم»، ويؤمن بعجوز البيت وشيخ السجادة.

وأهدى إليك فى الختام كلمة الحق، وهى أنك إذا أردت أن تحيا حياة طيبة فتسل بذكرى ماضيك، وتمتع بيومك كأنه جميع عمرك، ودع المستقبل لا تكلف نفسك مؤونة الفحص عنه.

كدر النفس[1]

لا جدال فى أن الكدر والغم من أشد أدواء النفس وأعظم أمراضها، فهو إذا نشبت أظفاره فيها، لم يلبث أن يمزقها تمزيقًا ويشتتها تشتيتًا، فترتبك على الإنسان معيشته وتضطرب عليه حياته، يرى الدنيا فى عينه أظلم من الدجى وأضيق من سم الخياط، وتصبح نفسه وكأنها سمكة الحبر تسود بما تمجه من جوفها كل ما حولها، وكأنها تلبس شارة السواد كما يلبس الجسم ثوب الحداد.

ولما كان هذا الداء عصى العلاج أبى المراس، وجب أن يعمد الحكيم فى علاجه إلى أقوى ما يكون لديه من الأدوية المختلفة، فللمرض الشديد الدواء الشديد، وأول شرط فى نفع الدواء للبدن، أن يواظب المريض على تناوله ليكمل سريانه فيه، ولا نفع لما نعرضه عليك هنا من علاج الأكدار إن لم تأخذ فيه أولاً بطول المواظبة على التدبر والتفكير وشدة الإمعان وتكرار النظر وكثرة التمرن والتدرب، حتى يسرى العلاج فى النفس فتتغذى به، والإنسان يقدر بقوة التمرين والتكرار أن يقوم بالأفعال العجيبة الجسمانية والنفسانية قيامًا يدهش الألباب، كالذى كان يحمل ثوراً ويعدو به أميالاً فى أعياد أثينا القديمة، وكالذى يلعب فى ثمانى رقاع للشطرنج فى آن واحد، وهو غائب عنها مشتغل بلعب آخر من ألعاب الورق فى الدنيا الجديدة، إذا كان هذا فى إمكانه فما أولاه بأن يروض فكره ويمرن نفسه على الأخذ بأحكام الفضيلة، حتى يصل إلى الغاية المقصودة منها، وهى السعادة، ولكنك إذا قرأت ولم تتدبر، ونظرت ولم تتبصر، وحفظت ولم تعتبر، لم تنتفع بكثرة المطالعات وطول المعالجات.

ولا خفاء فى أن البدن مرتبط بالنفس؛ كما أن النفس مرتبطة بالبدن، وأن مرض النفس يؤثر فى البدن فيمرض البدن، ومرض البدن يؤثر فى النفس فتمرض النفس، وأول مراقى السعادة «النفس السليمة فى الجسم السليم».

ولنبدأ بالكلام عن صحة الجسم التى تتوقف عليها صحة النفس: يلزم لصحة

---

(١) م. ش ١٥٢-١٥٣، ١٥٥، ١٥٧-١٦٠. ١٦٤/ ٢ مايو- ٢٦ يوليو ١٩٠١ (تحت عنوان «أيها المحزون»)

البدن أن يجتنب الإنسان كل إفراط فى الشهوات، وكل ما من شأنه أن يورث اضطراباً في الجسم، ثم يأخذ بشروط الصحة من استنشاق الهواء النقى فى الشمس المسفرة، والاستحمام بالماء البارد، وأن يتعهد إفراز الأخلاط الزائدة، وأن يكثر من الحركة فإن الحياة فى الحركة، وإنك إن نظرت إلى البدن من داخله وجدت ما فيه من الأحشاء والأعضاء فى حركة مستديمة، فترى القلب يقذف مجموع ما فى الجسم من الدم إلى الأوعية الكبيرة والصغيرة فى ثمان وعشرين ضربة من ضرباته، وتجد الرئة تعلو وتنخفض بحركة سريعة دونها حركة آلة البخار، وتشاهد الأمعاء فى انبساط وانقباض، وفى الجسم أعضاء منفعتها الامتصاص والإفراز فى آنٍ واحد على الدوام، وللمخ حركتان عند كل ضربة من ضربات القلب وعند كل استنشاق للنفس، فإذا قلت حركة البدن من ظاهره كما هى الحال عند الذين يعيشون عيشة الرفه والسكون؛ لم يتم التوازن بينها وبين الحركات التى فى باطنه، فيقع الجسم كله فى اختلال، لأن حركة الباطن تحتاج إلى المعاونة بحركة الظاهر ليستقيم الوزن ولا يختل نظام الجسم والنفس معًا، وقد ترى الرجل ساكن الجسم وصدره يتميز من الغيظ ويغلى بالحقد، فإذا دام على هذا السكون لم تأمن عليه مغبة ذلك الاختلال، ولهذا ينصحون للإنسان إذا غضب أن يأتى بحركة فى بدنه، وفى الحديث الشريف «إذا غضب أحدكم فليتوضأ»، وفى كلام أرسطو «فليستحم بالماء البارد»، وترى الأشجار لا تسير سيرها الطبيعى فى النمو إذا لم تعرضها للهواء، لتهتز أغصانها فتساعد الحركة فى ظاهرها حركة نموها فى باطنها.

فتعهد البدن بما يصلحه من الغذاء والنظافة والحركة وسواها واجب، والسير به على قانون الصحة متعين لسلامته وسلامة النفس معه، ولا تعجب للإسهاب والتوكيد منا فى هذا الباب فإنه أصل معالجة النفس، ومما يدلك على ذلك أنك ترى الشىء فى حال انتظام صحتك، فترتاح إليه نفسه وتستملحه، ولكنها إذا رأته فى حالة من حالات الجسم المعتلة، انقبضت منه ونبت عنه، والشىء هو واحد لم يتغير، وإنما الذى تغير نظام النفس بتغير نظام الجسم، ومن هنا نفهم قاعدة الحكماء المشهورة إن الأشياء الخارجة عن الإنسان لا قيمة لها فى ذاتها، وأن طريقة نظرنا إليها وكيفية إستقبالنا إياها هى التى تلبسها لباس الحسن أو القبح، وقد أجمع علماء الأخلاق أن تسعة أعشار السعادة قائمة على اعتدال البدن وصحة الجسم، فإن سلطانه على النفس عظيم، تعتل باعتلاله وتعتدل

باعتداله، وقد ترى كثيراً من أمراض البدن تؤثر فى الصفات النفسانية أعظم من تأثيرها فى البدن نفسه، فيختل التصور ويتبلد الذهن وتسوء الطباع، ومن سوء الرأى وخبل العقل أن يهمل الإنسان أمر بدنه ويشتغل عنه بسفساف الأمور وينهكه فى سبيل المطالب الباطلة، ويجعله فدية للسعى وراء المال أو الجاه أو العلم العقيم والمجد الزائل، واضرب عُرُضَ الحائط بقول المتنبى:

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبتْ فى مُرادِها الأجسامُ

وتنقسم معالجة النفس من أكدارها قسمين: الأول معرفة حقائق الأشياء فى ذاتها، والثانى معرفة ما تلبس بالأذهان من الأوهام الباطلة التى تغش الحقيقة وتشوهها، فتوقعنا في الضلال، وتورثنا الشقاء والبلاء، ولما كان من نتائج شفاء النفس من أحزانها وأكدارها الوصول إلى راحة الحياة، فقد تعين علينا البحث أولاً عن ماهية هذه الراحة فى معيشتنا، وعن ماهية الألم، وعن حقيقة الخير وحقيقة الشر، وهل هذه الدار دار ألم وشقاء خالية من أسباب السعادة والهناءة؟ وهل فيها راحة للعيش وسعادة للحياة فنقول:

إن الله جلت قدرته لم يرد بخلقه شراً فى هذه الدنيا، ولم يجعلها مستقرا للألم ومطمورة للعذاب، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً بل جعلها لأوليائه، وهم أهل الفضيلة، دار سعادة وهناءة فانية يرحلون منها إلى دار سعادة وهناءة باقية، قال تعالى «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

اشتبهت علينا الأمور واختلفت فى نظرنا الأشياء، وأخذنا بتضليل المضلين وبطلان المبطلين، فصرنا لا نفرق بين الخير والشر والطيب والخبيث والنافع والضار واللذة والألم، بل أخذنا هذا مكان ذلك وصبغنا الشىء بصبغة ضده وحولنا الأشياء عن أصولها، فوقعنا في شر العذاب.

ومن خالف فطرة الله التى فطر الناس عليها وانسلخ عنها، فآحر به ألا يلقى فى دنياه راحة ولا فى حياته سعادة، فنحن الذين نجلب الشر لأنفسنا ونسود عيشنا ونخرب بيوتنا بأيدينا، ونشكو الزمان وما فسد الزمان وإنما نحن الفاسدون.

يقولون الزمان به فساد   وقد فسدوا وما فسد الزمانُ

وقال الآخر:

كلما أنْبَتَ الزمانُ قناة　　ركب المرءُ للقناة سِنانا

وكما أنه لا يتأتى لطبيب الأبدان أن يعرف علاج الأمراض وشفاءها إلا بعد معرفة تركيب الجسم والوقوف على منفعة كل عضو فيه، كذلك لابد لحكيم النفوس من تشريح الفكر ومعرفة وجوه الخطأ والصواب فيه لانتظام صحة النفس.

فاختلال صحة الفكر مبعثة الخطأ فى الحكم على حقائق الأشياء، والغلط فى التقدير وضعف التمييز للصحيح من الفاسد، فتوازن الفكر وصحة التمييز وسداد الحكم ومعرفة الأشياء فى ذاتها مجردة عما يشوبها من الخطأ والوهم هو ما نسميه «عقلاً»، وهو أحد أركان الفضيلة التى لا تنال السعادة والراحة فى الدنيا بدونها.

وهذه السعادة التى نتكلم عنها كانت الشغل الشاغل لجماعة الفلاسفة والحكماء منذ الدهر الأول، فذهبوا فيها مذاهب شتى، واختلفوا فى كنهها اختلافاً بيِّنًا دعا إليه حب الجدل، وانتصار كل واحد منهم لرأيه، حتى بلغ بهم الأمر أن جعلوا لما يسمونه السعادة العظمى مائتين وتسعين وجهًا كل واحدٍ منها يخالف الآخر.

ونرجح رأيين بين تلك الآراء المختلفة: أحدهما أن سعادة الحياة هى ذات الفضيلة، وأنه ينبغى للإنسان أن ينشدها بكل وسيلة سواء أوصل إليها من طريق الألم أم من طريق اللذة، وثانيهما أن السعادة العظمى فى اللذة يبلغها الإنسان من طريق الفضيلة، فالفضيلة هنا وسيلة وهناك غاية.

ومن تأمل هذين الرأيين وجب عليه أن يأخذ بالرأى الثانى وهو أقرب الرأيين إلى الطبيعة البشرية، لأننا نجد الإنسان يأنس إلى اللذة منذ نشأته فى الوجود، ويميل بطبعة إلى التمتع بها ويجدها خيراً عظيماً، ثم ينفر كل النفور من الألم ويتقيه ويسعى جهده فى دفعه عنه ويراه من أكبر الشرور، والحس هو الحاكم الأول على الإنسان فى جميع أحكامه، فلو نزعناه عنه لم يبق لديه شىء من قوة الحكم، ولم يدرك الفرق بين ما هو موافق للطبيعة وبين ما هو مخالف لها.

ولا يوجد أحد فى العالم يكره اللذة وينفر عنها لأنها لذة فى ذاتها، بل لأنها قد

ينتج عنها الألم لمن لم يعد لها ويأخذ بحسب أحكام الفضيلة، كما أنه لا يوجد إنسان يحب الألم ويطلبه لكونه ألما فى ذاته، بل لأنه قد ينتج عنه لذة. فترى الإنسان يحتمل كثيرا من الآلام لأجل أن يتوصل بها إلى نتيجة نافعة فالرجل الذى يبحث عن اللذة التى لا ضرر فى عاقبتها لا يكون ملومًا فى حكم العقل، بخلاف من يبحث عن الألم الذى لا تكون من ورائه لذة. نعم إننا نلوم كل من غرته جاذبية اللذة الوقتية فعمى عما يعقبها من الآلام والأكدار التى تلحق بالنفس فى استسلامها لقيادة الشهوات، كما أننا نلوم أولئك الذين يذهب بهم الترف واللِّيان إلى إتقاء الألم بإغفال القيام بالواجب عليهم.

وشأن العاقل فى اللذة إذا كان حراً فى تناولها ولم يكن له ممانع عنها أن يتمتع بها ويتخلص من الآلام، ولكن إذا اعترضه فيها واجب من الواجبات الاجتماعية وضرورة من نظام المعايش، تعين عليه أن يرفض لذته ويتقدم لتحمل الألم والتعب.

فإن نبذ اللذات الصغيرة لبلوغ اللذات الكبيرة، واحتمال الآلام الخفيفة لدفع الآلام الشديدة هو ما يقضى به حكم العقل على الإنسان، وليكن عقله ميزاناً يميز به الراجح من المرجوح، واللذة التى يتطلبها هى ما يلائم الجسم والنفس ويوصل إلى سعادة الحياة من طريق الفضيلة.

إن اللذة الكاملة التى ننشدها من طريق الفضيلة ونجتهد فى تعريفها لك ليست هى ذلك الإحساس الذى تحسه فى أثناء سد الحاجة، بل هى الحالة التى يكون عليها الجسم قبل حدوث الألم، فلا يقال للجائع، وهو يتناول طعامه لقمة بعد لقمة، إنه قد بلغ اللذة، وإنما يبلغها عند الإنتهاء من الطعام، لأنه سائر فى أثناء تناول الطعام فى طريق رفع ألم الجوع ولم يصل إلى غايته بعد وهى الشبع الذى تناول الطعام لأجله، فاللذة الكاملة إذن فى تمام رفع الألم لا فى مباشرة رفعه، وهى الراحة التى تجدها الجائع عند الشبع، والعطشان عند الارتواء، والسهران عقب المنام.

لكن الناس بمعزل عن معرفة قدر هذه اللذة، التى هى سلامة الجسم من الألم، وسلامة النفس من الاضطراب، ومن جهلهم بها أنهم لا يدركون ما هم فيه من تلك الراحة إلا بعد زوالها عنهم، ولا يتمتعون بها وهم فيها، ولا يتوهمونها إلا فى أثناء المسير إليها، فترى صاحب الجسم السليم من كل علة لا يدرك أنه فى أعظم لذة من الصحة إلا إذا حل

به مرض من الأمراض، يرفع عنه الحالة التى كان عليها من الراحة، فإذا تدرج فى أدوار النقه من مرضه توهم فيها لذة، وإنما حقيقة اللذة هى الرجوع إلى حالته الأولى التى كان غافلاً عنها، وكذلك لا تكون الراحة للمقيد فى الحديد عند فك القيود عنه، بل عند ما يعود جسمه إلى الحالة التى كان عليها قبل وضع القيود فى رجليه، وهذا الوهم هو من أكبر الأسباب التى سودت حياة الناس بالأكدار والأحزان، وجعلتهم يعتبرون أنفسهم فى الشقاء وهم فى نعيم، ويرونها فى نعيم وهم فى شقاء، غافلين عن نعمة تلك الراحة التى هى منتهى السعادة والتى قيل فيها: ليس للراحة قيمة، فهى فوق كل قيمة فى متاع الحياة الدنيا.

فقد تقرر أن المسافة التى يغيب فيها الألم لا المسافة التى يرتفع فى أثنائها هى اللذة المقصودة لدى الحكماء، والعاقل الحكيم لا يمتنع عليه أن يدرك الراحة فى حياته على كل حال ولو كان واقعاً فى الألم، فإن الألم إذا كان طويل المدة كان ذا فترات تكون فيها الراحة، فالذى يهون على نفسه تحمل ما لا محيص منه من الآلام فى هذه الحياة على موجب هذه القاعدة، سواء أكان ذلك بتحملها والتمتع براحة فتراتها فى حالة خفتها، أم بارتقاب الخلاص منها فى حالة شدتها، هو من يملك راحة الدنيا وسعادتها.

وهذه الراحة هى التى يطلب الانسان الفضيلة من أجلها ويرغب فيها للوصول إليها، كما أنه لا يطلب الطب لذاته، بل للتوصل به إلى صحة الجسم التى تنشأ عنه، كما لا يطلب صناعة الملاحة لذاتها بل للوصول إلى السلامة، والحكمة التى هى صناعة الحياة إذا لم تكن منها راحة للإنسان فى حياته فهى غير مرغوب فيها ولا مطلوبة لذاتها.

هذا هو تعريف اللذة التى يخطئ الناس فى معرفتها ولا يدركون حقيقتها، ولا وصول إليها إلا بالحكمة التى تكشف غطاء الأوهام، وتمكن الإنسان من الحكم الصحيح على الأشياء، وترفع عنه غشاوة الجهالة، التى استحكمت فيه وضللته حتى صار يتخوف مما لا خوف منه، ويحزن مما لا حزن فيه، وهى التى ترشده إلى تقليل الرغبات:

والنفس راغبة إذا رغبتَّها   وإذا تُرد إلى قليلٍ تقنعُ

وتنزع منه الاعتداد بأحكام الناس وآرائهم الفاسدة المتولدة فيهم من جهلهم بالحقائق وتطفئ فيه نار الطمع والشره التى طالما أودت بالأفراد والجماعات والشعوب

بما أورثتهم من الأحقاد والأضغان، وما أسعرته من نيران الفتن والحروب، وجعلت الناس فى شقاء دائم وألم مقيم.

فالعاقل هو الذى ينفى عنه أسباب المخاوف، ويقلل من الرغبات ويرضى بالكفاف ويقصر همه على ما تقضى به الحاجة الضرورية والطبيعية التى ليس من ورائها طمع أو شره، وإلا فقد تعرض للأحزان والآلام وحالف المخاوف والشرور، وقد ألم بذلك أحد الشعراء فى قوله:

مرحباً بالكفاف يأتى عفياً ... وعلى المتعبات ذيلُ العفاءِ

ضلة لامرئٍ يشمِّر فى الجمـ ... ـع لعيش مشمر للفناء

يحسب الحظ كله فى يديه ... وهو منه على مدى الجوزاء

ليس فى آجل النعيم له حـ ... ـظ وما ذاق عاجل النعماء

ذلك الخائب الشقى وإن كا ... ن يرى أنه من السعداء

حسب ذى إربةٍ ورأىٍ جلى ... نظرت عينه بلا غلواء

صحة الجسم والجوارح والعر ... ض وإحراز مسكة الحوباء

وقد آن أن نبين غلط الناس فى حكمهم على الأشياء، وضلال رأيهم فيها، إذ يعتبرون الخير منها شراً والشر خيراً، وأكبر خطأ يتملكهم هو خوفهم وفرقهم من الموت الذى هو رافع الأسقام ومزيل الآلام فيعدونه أعظم الخطوب وأكبر الشرور، واعلم أنه ليس شىء من أمور الدنيا إلا وهو محل للشك حتى قال بعض الفلاسفة: إن كل شئ يقبل الشك حتى قولتى هذه: إن كل شىء يقبل الشك، ومن بينهم طائفة يعرفون بأهل الشكوك، فهم يشكون فى كل شىء حتى فى وجود أنفسهم، ويعتبرون الحياة بما فيها حلم حال، ورؤيا نائم، وقد أشار بذلك شاعر تتبع أقوال الحكماء.

هوِّن على بصرٍ ما شق منظره ... فإنما يقظاتُ العين كالحلم

ولكن كيفما كان الشك فى أمور الحياة، فإنه يوجد أمر واقع حق لا شك فيه، وهو الموت.

ومن عجب الأمر أن الإنسان يوقن بالأباطيل، ويؤمن بالخرافات، ويصدق بالوهم والخيال، ولا يوقن بالحق وهو الموت، كأنما هو يشك فيه:

والموت لا يخفى على أحد   ممن ترى، وكأنه يخفى

ولذلك كان من أول هداية الأنبياء للناس تذكيرهم بالموت، ومن أكبرهم الفلاسفة تفكيرهم به، وبسط القول في أن الحياة باطل والموت حق، وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم سنة أجروها بينهم مجرى العادة في وجوب تذكر الموت كل حين، فإذا ولد الطفل عندهم صنعوا له نعشاً بقدره ووضعوه بجانب المهد، يجددونه في كل شهر على مقدار النمو في جسم الطفل، ولا يزالون يفعلون ذلك، حتى إذا بلغ أشده وضعوا النعش بجانب السرير إلى أن يحل يوم أجله فيحملوه عليه! يشيرون بذلك إلى أن يوم الولادة ويوم الوفاة أمران متلاصقان وحبلان متصلان، وأن الإنسان يمشي في هذه الدنيا وكأنه عابر جسر عن يمينه الموت وعن شماله الحياة، وأنه كما يدب بنموه في الحياة يدب في آن واحد بأنفاسه نحو الموت، وأنه يجب على العاقل أن يحضره على الدوام ذكر الموت كما يحضره ذكر الحياة، وأن اليقين في أعواد النعش والشك كل الشك في أساطين القصر، وهم يلبسون حداداً في يوم الولادة، والبياض فرحاً عند حلول الأجل، حتى أنست نفوسهم بالموت، ولم يعتبروه شراً بل هو الخير كله عندهم، ولذلك لم يجعلوا بينهم حكم الإعدام قصاصاً وعقاباً، وإنما العقاب عندهم في إيلام الأجسام إيلاماً متواتراً لا تقصر معه مدة العمر، لأن الموت هو المنقذ من الآلام كلها، وإنما جعله أهل المدنيات الأخرى عقاباً لجزع النفوس منه وتخويفهم الدائم من وقوعه، فكان تصوره في الوهم هو العقاب الأكبر عندهم.

من منتهى غباوة الإنسان وجهله أن يتخذ في كل منبت شعرة من جسمه حبلاً من الأمل يعلقه بالبقاء في الحياة الدنيا، وأن يمحو من ذاكرته كل سبب يربطه بصفائح القبر.

والناس ينقسمون بالنسبة إلى ذكرى الموت قسمين: قسم لا يتذكر الموت ولا يجري له على خاطر، كأنه قد رسخ في ذهنه أن لا فناء مع البقاء ولا هلاك مع الوجود، وهو لا يحس هذه الحقيقة أم الحقائق في الدنيا إلا عند المشاهدة والعيان، ولا يذكر الموت إلا

ريثما تنقضي عنه المشاهدة، كأن يشتد به مرض يذكره بالموت، فاذا أبل من مرضه لم يتذكر الموت بعده، وإذا شاهد الموت بعينه في أهله وجيرانه لم يبق ذكره لديه إلا ريثما يطرأ عليه شغل من مشاغل الحياة يصرفه عنه، فيعود إلى ذهوله الأول وعماه المستديم، وقد يظن بعض الناس أن في هذا الذهول راحة من التفكر في الموت، والحقيقة أن في هذه الأوقات القصيرة التي يتذكر الذاهل فيها الموت عند نزول المرض به، أو عند وفاة أحد أهله وصحبه من آلام الجزع والفزع ما لا تقاس آلامه بآلام الحياة كلها، ويقع هذا التذكر الفجائي على ناصيته موقع زلزلة تهدم في لحظة واحدة جميع ما شيده في رأسه من الآمال، وما ابتناه في خياله من الأماني التي تسبح به في تيار الخلود، أو هو نفخة الصور تذهب برشده، وربما أصابه في أعضائه وجوارحه فجعله ثاني قريبه أو صاحبه في القبر.

لما رأت أختها بالأمس قد هلكت كان الهلاك لها أعدى من الجربِ

وهم أشد الناس حزناً عند فقد فقيد لهم، لا للأسف عليه ولكن لخوفهم أن يصيبهم ما أصابه، وهلعهم أن يجري عليهم ما جرى على غيرهم، وإذا قابلتهم يوماً بقولك: «مات فلان من أصحابكم» اعتراهم الدهش والعجب، كأنك أخبرتهم بأمر ليس من الجائز وقوعه، فهم يبادرون بقولهم: وكيف مات؟ لا يستفهمون عن سبب الموت ولكن عن الموت نفسه.

ومن دأبهم أن يعملوا ما في وسعهم لصرف أفكارهم عن ذكرى الموت ويدأبون في محو المذكرات به، وكان لي صاحب أديب إذا قرأ قصيدة «بانت سعاد» أغفل منها قول كعب فيها:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامتــــه يومًا على آلة حدباء محمــــــول

وآخر كان لا يمشي في جنازة ولا يحضر مأتماً ولا يزور مقبرة، فإذا رأى يوما آلة من آلات الدفن أو الكفن هرب ببصره عنها واستعاذ بالله منها، ومنهم من يهجر بيته إذا مات فيه ميت، حتى لا تذكره جدرانه بخروج الميت منه، ولو أنك أهديت إلى أحدهم صورة جمجمة من ذهب مرصعة بالجواهر لاستنكرها وبشع منها ونبذها عنه بعيداً، وربما

أضمر لك العداوة وسخط عليك، لاعتقاده أنك قصدت به السوء فى تذكيره بهذا الشر العظيم والأمر الفظيع، وحتى لقد صارت تلك الجمجمة التى بقيت فى محافل الماسون أثراً من آثار آبائهم الأولين فى وجود تذكر الموت والتفكر فيه، وآلة بين أيديهم اليوم من آلات الإرهاب والتخويف، يمتحنون بها شجاعة الداخلين فى زمرتهم، ولو بحثت فى رأس الماسونى الحديث الدخول عن أثر ما قاساه ليلة دخوله من تصنعهم الإرهاب والتخويف لم تجد باقياً منه فى ذلك الرأس إلا هذه الجمجمة.

وكان فى مصر رجل من أهل العلم والورع يتطوع لغسل الموتى إذا دعاه كبير أو أمير لغسل من يعز عليهم موته تبركاً به، فكان مع سعة علمه ودماثة خلقه ونظافة ثيابه ورقة شمائله وحسن خدمته إذا دخل مجلساً من مجالس العظماء، انقبض الجميع واشمأزوا أن يضعوا أيديهم فى يده وانسل الواحد منهم فى إثر الآخر.

وشهدنا سيداً من السادات قد تهدمت زاوية آبائه وأجداده الذين يعيش فى كنف مجدهم وشرف نسبتهم ويفخر بالاتصال بحبل ذلك الرفات، يفزع ممن يذكره ببناء المتهدم، ويهول أن يزور المقبرة يوماً لينظر فى وجوه ترميمها، أما إذا قال قائل لواحد منهم فى مغاضبة «إن شاء الله تموت» فهناك الهول الأكبر من العداوة والبغضاء، لأنه جاء بأفظع ما يكون من أنواع الدعاء عليه.

ولضرب الأمثال وذكر النوادر فى هذا الباب مجال متسع نخشى معه الملل من كثرتها، ويكفى الإنسان أن ينظر إلى من حوله فى كل ساعة من كل يوم، فيرى العجب الغريب من الشك فى اليقين، والارتياب فى الواقع المحتم.

* * *

وأما أهل القسم الثانى بالنسبة إلى ذكرى الموت فهم أولئك الذين تراهم يذكرونه دائماً لخشيتهم من وقوعه وخوفهم من نزوله، فيتولاهم الرعب ويترقبون وقوعه فى كل حين، ويعتبرونه هادم اللذات ومقوض بناء السعادة، وأكثر ما يذكرونه إذا خلوا من أشغالهم وانتقلوا إلى أوقات فراغهم، فيكدرون صفاءها ويسودون بياض عيشتهم بالتخوف الدائم من زوالها، وأشد ما يكون عذابهم من ذكرى الموت إذا أردف الله عليهم النعمة فى إثر النعمة وزادهم من متاع الدنيا وزينة الحياة، فلا يبصر أحدهم ولده يلعب

أمامه إلا ويتغلب على فكره التخوف عليه من الموت، أو الترحل قبله ولمَّا يتمتع به، ولا ينظر إلى ما اكتنزه من مال، واقتناه من زخرف إلا نظر المغشى عليه خشية حرمانه إياه بالانصراف عنه، وما يكون مصيره بعد رحيله ومآله بعد زواله.

لا يزالون هكذا في حال القلق والهلع والجزع والفزع والرعب والكدر، فتقبض النفوس وتطرق الرؤوس وتسقط عليهم الهموم كسفًا من العذاب، يتململون منه تململ السليم، ويئنون تحته أنين المصفد في القيود، «مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون، أو كصيبٍ من السماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، والله محيطٌ بالكافرين».

وترى هؤلاء الذين يذكرون الموت ويخافونه ويحرصون على الحياة في هم دائم وعناء مقيم، للتوقي من الأخطار والتحرز من أسباب الهلاك، ولا يكتفون في ذلك بما يدخل في طوقهم من الاحتراس منه، بل يتجاوزونه إلى معالجة ما لا دافع له من الأقضية المحتمة والنوازل الطارئة والبلايا العامة، كالطواعين والأوبئة وغيرها من أمراض العدوى، وكالزلازل والصواعق والعواصف، ومنهم من لا يركب السفينة خشية الغرق، ولا القطار خوف المصادمة، ومنهم من يقوم من منامه مرة بعد أخرى فيدور في أنحاء البيت كالعسس يتفقد أثاث الحجرات، خيفة أن يكون قد اتصل بها شيء من أسباب الحريق، فإذا أمن المسكين ساعة، واستغرق في نومه فرأى في الرؤيا أن أحدا ممن مات من أقاربه أو أصحابه دنا منه وسلم عليه أو دعاه إليه قام من منامه في أشد حالات الفزع كالذي يتخبطه الشيطان من المس، أينما وجه وجهه ترقب وقوع الموت وحلول الأجل وصدق الرؤيا، وكأنه في فزعه ليله ونهاره عدو المعتصم في قول أبي تمام:

وعلى عدوك يابن عم محمد ... رَصَدَان: ضوء الصبح والإظلامُ

فــاذا تنــبه رعته، واذا غــفا ... سلَّت عليه سيوفَك الأحلامُ

ومن غريب المتناقضات في أمرهم، أنهم مع هذا التوجس الذي هم فيه إذا ذكرت اسم الموت في مجالسهم لووا أعناقهم، وكادت تقف حركات قلوبهم من الغيظ، ونقموا منك

أن ذكرتهم مالا يغفلون عن ذكره والتخوف منه ليلهم ونهارهم، كما أنهم يستبعدون الموت فلا يكادون يصدقون بموت الفجاءة، فإذا سمعوا بحادثة من هذا القبيل أخذوا يتعللون العلل، ويتمحلون الأسباب ويختلقون للميت أمراضاً كامنة وأدواء مزمنة لم تكن به، وإذا أخبرتهم بموت شاب في غضارة عمره وغضاضة سنه زادوه ما شاءوا من عدد السنين، كأن الإنسان لا يموت شاباً، تراهم يخفون حقيقة أعمارهم ويجتهدون في نقص سنيها، ويقفون على سن واحدة وإن درجت من بعدها السنون، ليغشوا أنفسهم ويطرحوا من فكرهم إمكان المفاجأة من ذلك العدو الأحمر أو الأزرق في حين الغرة وفي مقتبل السن، وليطمئنوا على التراخي في الأجل، أما سيرتهم في التحرز لأجسامهم والتوقي لأبدانهم في ليلهم ونهارهم أن يعتريها اعتلال أو يصيبها اختلال، فإنهم يتغالون فيه إلى حد الجنون فيحاذرون هب النسيم وحرارة الضياء، ويتوهمون في كل لقمة تخمة، وفي كل جرعة غصة، والميكروب وما أدراك ما الميكروب يتخيلونه في الطعام وفي الشراب، فيلتزمون الحمية ويتخيرون لهم ألواناً خاصة من الغذاء يضوى بها الجسم ويضعف، فيعمدون إلى استعمال الأدوية المختلفة بجواهرها المعدنية لتقويته، فيزداد بها ضعفاً لأنه لا يمتصها بل ترسب فيه وتعطل عمله وتفسد المعدة التي عليها صحة الجسم كله، فينتقل الوهم إلى الحقيقة، وتتناوبهم الأمراض التي أعدوا أنفسهم لها بأيديهم، فيقعون في يد الطبيب، فإذا لم ينته به جهله وطمعه إلى إراحتهم بالموت عاشوا بين يديه عيشاً كله آلام وأوصاب، إلى أن يحل بهم الموت من خوف الموت، ويذهبوا إلى حال سبيلهم لا هم تمتعوا بالحياة، ولا هم نجوا من الموت.

ولا تنكر علينا ما قدمناه من أن التوهم والتخوف يحدث الأمراض في الأجسام، فإن للخوف سلطاناً على النفس والجسم لا يوازيه سلطان في العالم، وله أعظم أثر في فساد صحة الإنسان، فيختل به نظام الجسم ويؤدي به إلى الهلاك، ولذلك لا نرى بداً من الكلام فيه للانتباه إلى إضعاف سلطته ووجوب طرحه جانباً، فإن في نموه والاسترسال فيه شقاء الروح وسقم الجسم، فتسيل منه ينابيع الأحزان والأكدار، وتتفجر عيون الغموم والهموم فنقول:

أجمع جلة العلماء من أطباء العصر الحاضر على أن محض التوهم والتخوف يحدث أمراضاً في البدن لم يكن لها من سبب سواه في الباطن والظاهر، ولا محل هنا

للتطويل بذكر أبحاثهم التشريحية، وإنما نذكر شيئًا مما يستشهدون به برهانًا على أبحاثهم العلمية من الحوادث والوقائع، التى شاهدوها بأعينهم ومارسوها بأنفسهم مما لا يقبل الشبهة ولا يعتوره الريب ففيها الكفاية.

باشر أحد الأطباء تشريح ميت مات بداء الكلب، فاعتراه تخوف شديد أن يكون قد علقت به الجراثيم وأصابته العدوى واشتد به الخوف، فأخل بنظام الجسم، فتولاه الأرق وفقد شهوة الطعام، وانقبضت نفسه عن تناول كل سائل، فكان إذا ألهبه الظمأ شرب جرعة من الماء لا يكاد يسيغها، وزادت به الحال إلى أن هام على وجهه فى الطرق ضالاً محتيلاً، أدرك بعض أهل صناعته خطبه وأنه من أثر الخوف والوهم وسوء التصور فصرفوا جهدهم لتخفيف ما به، وصحبوه أيامًا ما لم يفارقوه فيها ساعة، وما زالوا به حتى أقنعوه بأنه سليم الجسم معافى من تلك العدوى، وأن ما به هو من أثر الخوف لا سواه، فأخذ ينسى بفضل اجتهادهم تلك الفكرة القائمة به، وشفى منها شفاء تامًا.

ومن الأمور المقررة فى أقوال الأطباء أن محض الخوف يولد فى الجسم أعراضاً هى بذاتها أعراض داء الكلب، وذهب أحد مشهوريهم إلى أن الخوف هو سبب الكلب وليس سببه عقر الكلاب ولعابها، وروى أن كلبًا عقر أخوين وكان أحدهما على أهبة السفر فى يومه إلى أمريكا، فسافر إليها وغاب خبره عن أهله، فلما عاد إليهم بعد عشرين سنة أخبره أحدهم بأن أخاه مات من أثر عضة الكلب، فوقع تأثير ذلك فيه كالصاعقة، وظهرت عليه أعراض داء الكلب فى أقصى حدتها، ولزم فراشه حتى مات، وقد تأكد أن الجانب الأعظم ممن يصابون بداء الكلب، لم تكن إصابتهم ناشئة إلا عن إخبارهم بأن الكلب الذى عضهم كان كَلِباً، ولا يمكن أن تميز الإصابة بالكلب الناشئة عن الخوف من الإصابة الناشئة عن عدوى الداء.

وكما يمرض المصاب بالوهم يشفى أحيانًا بالوهم: دعى طبيب لمعالجة أحد المصابين بالكلب بعد أن يئس منه جميع الأطباء وحكموا بموته، فأخذ يقلب جسمه تقليباً دقيقاً ثم مال عليه بعد ذلك ولثم فمه، فما لبث المريض أن شفى بفضل تلك القبلة، التى اعتقد بها أن الطبيب لم يقبل إلا وهو آمن على نفسه من عدوى ذلك المرض، وأنه خلو منه.

وأكثر ما يفتك الخوف بالناس فى أيام الأوبئة والطواعين، والذى يعظم خوفه يكون أكثر تعرضاً لها من سواه، وقد يكفى الخوف وحده ليسبب أعراض الوباء ولو كانت جراثيمه معدومة البتة.

ومما يحكى أن إحدى النساء بلغها وفاة أخت لها بالوباء فى بلاد بعيدة، فجزعت جزعاً شديداً، وخيل لها أن سيصيبها ما أصاب أختها، واستولى على فكرها هذا الوهم، فأضاع منها شهوة الطعام وأحدث لها إسهالاً، ولم يستطع الأطباء إنقاذها إلا بعد أن أثبتوا لها بالبراهين القاطعة أنه يستحيل إصابتها بتلك العدوى لبعد الشقة بينها وبين أختها، وإنما أصابها ما أصابها من أثر الخوف.

وقد وصف أحد الأطباء زلزلة فى كتابه فقال. إن عدد الذين أصيبوا بالحمى من شدة الخوف وماتوا بها كانوا أكثر من الذين تهدمت عليهم الدور.

وقد يموت بعض الخائفين فجاءة جزعًا من الذهاب إلى المستشفى، وبعض الناس إذا اشتد به الخوف انتحر، كما يحصل لبعض الجبناء إذا سيروهم إلى الحرب، فيستعملون أسلحتهم فى قتل أنفسهم ليخلصوا من آلام الخوف.

ومن القول المتواتر فى مصر إن داء الزهرى يأتى أحياناً من الفزع والرعب، وقد لاحظ أحد الأطباء أن جرحى الجيش الظافر أقوى على احتمال آلام جراحهم من جرحى الجيش المقهور.

وكان أحد كبار الأطباء إذا أتوه بمريض، سأله أولاً عما إذا كان اعتراه مرة خوف أو ضيق شديد فيستعين بمعرفة ذلك فى علاجه.

فأنت ترى أن آلام النفس أفتك بالأرواح من آلام الجسم، ولو علمت عدد الذين يقتلهم اليأس والهم والوجد والغرام وداء الحنين إلى الوطن فى كل زمان ومكان، لأيقنت أن الخطب من ألم النفس عظيم.

ومن الحوادث التى تروى فى سلطان الخوف والوهم على النفس حتى يصل بها إلى الهلاك، ما حكاه أحد المعلمين فى مستشفيات لوندرة:

أن جماعة من طلبة المدارس أرادوا أن يسخروا من رجل كانوا يبغضونه فى المدرسة، فعمدوا إلى حجرة مظلمة ووضعوا فى ركن منها حطباً للوقود، وبجانبه وضعوا فأساً محددة، وجلس فى صدرها بعض الطلبة متشحين بالأردية السوداء التى تلبس فى مجالس القضاء، ثم أدخلوا الرجل إلى الحجرة وأخبروه أنهم اجتمعوا لمحاكمته، وأنهم أعدوا الحطب للإحراق والفأس للإعدام، فظن الرجل فى أول الأمر أنهم يمزحون معه، ولكن ما زالوا يؤكدون له أن الأمر جد، وأن القضاة يبحثون الآن فيما يستحق من العقاب، ونطق القضاة بحكم الإعدام وبتنفيذه فى الحال، وتقدم الجلاد والفأس فى يده وباشر آخر عصب عينيه بعصابة، ثم كتفوه وأركعوه إلى الأرض، وعند صدور الأمر بالتنفيذ لف أحد الطلبة قطعة من النسيج مبتلة بالماء، ولمس بها قفاه يحاكى بها لمسة الفأس، فتوهم الرجل أن القتل وقع عليه فانبسط على الأرض لا حراك به، فكشفوا عن عينيه الغطاء وأخذوا بيده ليرفعوه فإذا به قد مات فعلاً من شدة الرعب والخوف.

ومنها أن جماعة من أطباء روما أرادوا أن يشاهدوا بأنفسهم تأثير الخوف، فطلبوا من الحكومة أن تسلم لهم فى أحد المحكوم عليهم بالإعدام ليجربوا فيه، فدفعت إليهم أحد الجناة، فأخذوه وأعلموه أنهم استنزلوا الحكومة عن إعدامه بالشنق إلى إعدامه بفصد العروق ونزيف الدم ليدرسوا عليه بعض الشؤون الطبية، وساروا به إلى أحد المستشفيات حيث اجتمع خلق كثير من الطلبة والمعلمين ووضعوا العصابة على عينيه وأصعدوه بعض الدرج ثم أدخلوه حجرة الغسل ووضعوه بجانب صنبور ثم مزقوا أكمامه، وأوهموه أنهم سيبدءون بالفصد ومس أحدهم بمبضعه ذراع الرجل مساً خفيفاً، وأرسل آخر منهم فوهة الصنبور فسال منها الماء بخريره، فما زال الماء يسيل وقوى الرجل تنحل شيئاً فشيئاً، لاعتقاده أن الماء الذى يسيل هو دم النزيف حتى وقع ميتاً.

وكما يمرض الجسم بالوهم كذلك يصح بالوهم، كان فى أحد المستشفيات امرأة مصابة بداء الصرع، فإذا اعترتها نوبة أذابت القلوب من التألم والأنين، فيحقنها الطبيب بالمورفين لتسكين الألم، وحضرتها النوبة ذات ليلة فقام الطبيب إلى صندوق الأدوية ليأخذ المورفين فوجده قد نفد، واشتدت الآلام بالمرأة، حتى أقلق صراخها جماعة المرضى وزاد فى آلامهم، فلم يجد الطبيب من حيلة أمامه إلا أن ملأ زجاجة الحقنة بالماء مكان

المورفين، وقصد المرأة فحقنها كالعادة، فسكنت فى الحال، وأثر الماء فى أعصابها تأثير المورفين، بسبب الوهم.

ومما يروى أيضًا فى هذا الباب، أن أحد المصابين بداء الصدر كان نائمًا مع صاحب له فى غرفة نومه، فقام صارخاً فى آخر الليل، وقد انطفأ السراج، يشكو ضيق النفس وينادى صاحبه أن يفتح النافذة ليستنشق الهواء، فقام صاحبه من منامه خابطا فى الظلام متحيراً فى الغرفة يتلمس الحائط بيديه، حتى ظن أنه عثر على مكان النافذة، فأخذ يعالج فتح زجاجها فاستعصى عليه فضربه بقبضة يده فكسره، فتنفس المريض مرتاحًا وذهب عنه ما كان به من ضيق التنفس، وعاد كل منهما إلى نومه، فلما استيقظا فى الصباح وجدا زجاج النافذة سليمًا مغلقًا، وتبين لهما أن الزجاج الذى كسر فى الليل وتنفس المصدور بكسره هو زجاج خزانة الكتب؛ وما استنشق المريض إلا هواءً موهوماً.

وجملة القول إن حوادث الخوف والوهم وتأثيرهما فى النفوس شائعة كثيرة، ومن استسلم لهما لم يلبث أن يصاب جسمه بالأوجاع والأوصاب من تأثيرهما، فإذا مرض الجسم مرضت النفس بمرضه فيقع الإنسان فى الدور والتسلسل، وإذا مرضت النفس بالوهم والخوف أثرت فى الجسم فيضعف وتنتابه الأمراض، فيزيد فى ضعف النفس وأمراضها، وأشدها الأكدار والأحزان.

فإذا أنت أخذت فى جسمك بقانون الصحة كما قدمنا، وعالجت نفسك وعودتها دقة النظر، وحسن التبصر وصحة القياس ومعرفة حقائق الأشياء، وحلت بينها وبين التدرج فى الهواجس والوساوس، وبعدت بها عن التسليم للأوهام والخيالات، وتذكرت الموت فى كل حين، لا للخوف منه، ولكن للاستئناس به حتى تصل إلى أن تحدق فى وجهه، لا أن تغمض عنه، وأن تعتقد فيه أنه شفاء الأسقام وختام الأوجاع وسبيل النجاة وأنه هادم الآلام لا هادم اللذات، وأنه واقع لا محالة وأن أوان حلوله مخبوء مجهول، وأنه بمقربة منك فى لحظة وعند كل لفتة، هانت عليك الدنيا وصغرت فى عينك، ولم تحفل بنزول النوازل وهبوط النوائب، ولم تتأثر من شرور الخلق، تذكّرْ دائماً عند كل خطب ملم قول الكتاب الكريم «إنك ميت وإنهم ميتون»، وكن فيهم مثل ذلك الحكيم الذى مثل أمام قضاته

ليحاكموه ظلمًا على إنكاره لعبادة الأوثان، فلما قضوا عليه بالموت قال لهم: «وأنا أيضًا قد قضيت عليكم بالموت».

نعم إنك إن أخذت بهذا الطريق فى معالجة النفس وتدرجت فيه، سلم جسمك من الأمراض والأوصاب، وسلمت نفسك من الهموم والأكدار، وقضيت عيش الحياة فى صفاء، إلى أن يحل الأجل ووجهك وضاح وثغرك باسم.

وتلك هى السعادة فى الحياة الدنيا.



المعروف

إن أكثر ما تتألم به النفوس وتتوالى منه الشكوى، كفران النعمة، ونكران الجميل، وضياع المعروف، ومقابلة الإحسان بالإساءة، والخير بالشر.

ولو تأمل الإنسان ذيوع هذه الشكوى المنكرة بين الناس لكاد يحكم بأن الإنسان شرير بالطبع، وأنه مجبول على السوء.

وليس الأمر على ذلك، وإنما الأصل فيه أننا لا نعرف كيف نسدى المعروف، ولا نعرف كيف نتقبله، فإن المعروف إذا وضع فى غير موضعه أنتج الكفران، فإذا أنتج إحساننا كنوداً فلا حق لنا فى الشكوى، لأننا أضعنا المعروف منذ وضعناه.

ولا محل للاستغراب من رذيلة الكنود والكفران، وأنها منتشرة بين الناس أكثر من انتشار بقية الرذائل، ولها، والحق يقال، عدة أسباب أخصها سوء التبصر فى اختيار من تضع المعروف عنده، ومن الغريب أننا نأخذ بالحيطة إذا أردنا أن نقرض إنساناً شيئاً من الدراهم، فنبحث وننقب عما يملك من متاع وعقار، لنأمن على أموالنا من الضياع ولا نحتاط أدنى احتياط إذا أردنا أن نسدى معروفاً أو أن نصنع جميلاً، والمعروف وإن كان يشابه الدَّيْن يختلف عنه بأن الوفاء فيه لا يكون عن مطالبة وتقاض، بل عن رضا خاطر وطيب نفس، فلا تليق فيه الشكوى من تأخر المدين، لأن هذا الدين لا يوفى من أدراج الصناديق، ولكن يوفى من ثنيات القلوب، ويكفى فى وفائه الاعتراف به، وليس إنكار الجميل بأقل عاباً وأعظم عاراً من المطالبة بالجزاء عليه.

وإذا كان المسدى إليه يستحق اللوم لنكرانه الجميل، فهل يسلم المسدى من اللوم أيضاً؟ كلا، فإن فى طريقة الإعطاء فى بعض الأحيان إغراء وتحريضاً على الكفران، فتارة يظهر علينا الامتعاض والتكره عند صنع المعروف، وتارة نذكر المسدى إليه برد المعروف والربا عليه، وتارة يعترينا الندم بعد إسدائه، ونطالب المسدى إليه بوجه غير

(١) م. ش ١٤٣-١٤٦ / ١-٥ مارس ١٩٠١ .

مرضي ونظر مشوب بالاعتلاء، فيتكدر الصفاء وتنقبض النفس، فنحن الذين نميت الشكران بأيدينا، ونبعث النكران بعد إسداء المعروف بل إبَّان إسدائه، ومن منا الذى أجاب القاصد لأول سؤال وأعطى الملتمس لأول رجاء؟ ومن منا لم يقطب جبينه ويلو عنقه ويتعلل بكثرة أشغاله، ويطاول في الحديث حتى لا تكون فرصة لصاحب الحاجة أن يكاشف بحاجته؟ ومن منا لم يتحيل للتخلص منه، كأن يستقدم إلى مجلسه من يخجل الطالب أن يبوح بطلبته أمامه مثلاً؟ حتى إذا ضاقت الحيل ولم يكن بد من سماع الطلب فإما أن نجيب بالوعد أولاً، وهو نوع من الرفض، وإما أن نعطى مع التعبيس والتقطيب والكره والتأفف! فهل ننتظر بعد هذا شكرانًا خالصًا وقد أخذ صاحب الحاجة ما أخذه منا انتزاعًا واغتصابًا لا إسداءً وإعطاءً، وأى جميل يكون لك عنده إذا رميت له ما رميت فى يده من علياء كبريائك، أو رميت له للتخلص من الطلب وأنت واجم، ثم تؤمل الشكران بعد ذلك؟ وكيف ترجو جزيل الشكر على سوء الإعطاء؟ إنما يأتى الشكر من حسن الطريقة التى يسدى بها المعروف ولو كان ضئيلاً، فكيفية الإعطاء هى التى عليها المعول هنا.

وقد قيل: «حسن الإعطاء خير من قيمة العطية»، فإذا أردت أن تولد الشكران فلابد أن تظهر نيتك الخالصة فى محبة الإسداء، ولا تنقص من قدره بالمواعيد، ولا تصحبه بعلامات ظاهرة من المن تسوء النفس، وقد جبلت طبيعة الإنسان على سرعة التأثر بالإساءة أكثر من الإحسان، وعلى نسيان الخير أكثر من نسيان الشر، ليس لك أن تنتظر شكرًا إذا أسأت فى كيفية الإحسان، ويكفيك من المسدى إليه أن ينسى سوء المعاملة فى إحسانك إليه، وألا يحقد عليك.

ومع هذا كله فإن كثرة أهل الجحود والكنود لا توجب تثبيط همتنا، ولا تحول وجوهنا عن إسداء المعروف، وكفران نعمة الله لم تغير من نعمته علينا، وما زالت نعمه تتناول الشاكر والكافر، وإنا لنستحق خيبة الرجاء فى الشكر إذا كنا أعطينا ما أعطيناه على نية انتظار الجزاء والمكافأة عليه.

كما أننا لا ينبغى أن نمتنع عن المعروف إذا تكررت لنا منه حوادث الكفران والكنود، فكم خاب ظن المرء فى امرأته وولده فما منعه ذلك من معاودة الزواج وتربية

الأولاد، وإشرافنا على الغرق مرة لا يمنعنا من ركوب البحر مرة أخرى.

والنكوص عن صنع الجميل بدعوى عدم المكافأة عليه يدل على التطلع إلى استجلاب الفائدة من ورائه، وعلى ذلك يكون ما أعطيناه كالقرض ننتظر معه الوفاء، وفى هذا ما يتخذه كافر النعمة تعلة يتعلل بها وحجة يحتج بها ليفر من خجل الكفران، ولا يكون كفران النعمة وصمة عار إلا إذا تركت المسدى إليه مخيراً فى الشكر، لا مغصوباً عليه أو مندوباً إليه.

ومن أكبر الأمارات على النفوس العظيمة الكريمة أنك تراها تفعل الخير لمحض الخير، ومن الآيات الحكيمة التى يجب أن يأخذ المحسنون بأدبها قوله تعالى: «إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً».

ومن أجل تلك الأمارات بين تلك النفوس أن كثرة أهل الكفران لا تثنيها عن معاودة إسداء المعروف، فالكريم لا يبالى أكفر الناس نعمته أم شكروها، ويكفيه أن يستمرئ حلاوة الصنيعة حين إسدائها، وهى اللذة التى يطرفه بها الإسداء وقد قال الشاعر فى ممدوحه:

لو كفر العالمون نعمته لما عَدَت نفسه سجاياها

فهو يصنع الجميل ولو كان يعتقد أن ليس فى العالم قلب شكور، ويؤثر أن يضيع إحسانه سدى على الانقباض عن إسداء الإحسان، والامتناع عن فعل الخير بعلة الحكم على القلوب بانطوائها على الكفران، مسابقة للكنود ومشاركة له فى لؤمه، وإذا كان ذنب الكنود عظيماً فإن ذنب الممتنع المتعلل على هذا الوجه أعظم منه.

ومن ظن أن الكريم يخسر معروفه فقد أخطأ، لأن لفظ الخسارة يشير إلى معنى انتظار الربح، وليس إسداء المعروف من باب التجارة ولا من حساب الدخل والخرج، وما له إلا باب واحد وهو باب الخرج والإنفاق، فإن دخل فيه شيء من الشكران كان ذلك ربحاً، وإن لم يدخل فيه منه شيء فلا خسارة فيه، إذا فلا يجوز لمحسن أن يقول يوما خسرت الجميل وقد استمرأ لذته عند الإسداء.

ومن آداب إسداء المعروف أن يسدل المسدى دونه ستراً من النسيان، يبقى

المعروف وراءه مستوراً حتى تكشف عنه يد الشكر من المسدى إليه.

والمعروف رأس مال طرحه فى يد الكنود خير من حبسه فى يد المحسن، لجواز أن يربو بالشكر فى نفس الكنود يوماً من الأيام على مرور الزمن، ولا يبعد عليه أن يتعلم منه حسن المثال فى إسداء الصنيعة.

ولا يقتصر إسداء المعروف على بذل المال، بل يتناول المال والجاه والسلطان والنصح والإرشاد وحسن المعاملة.

فليس الإنسان وحده هو الذى يدرك معنى حسن المعاملة، بل الحيوان المفترس والأسد الضارى إذا عودته الحسنى انتهى به الأمر إلى الاستئناس والخضوع.

ولا شيء أقتل للكفران فى النفوس من المواظبة على دوام الإحسان، فمن أسدى معروفًا ولم يشكر عليه فى المرة الأولى لا يبعد أن يشكر عليه فى المرة الثانية، فإذا قاوم الكفران الإحسان مرتين فعليك أن تعززهما بثالثة تذكر المسدى إليه بالاثنتين.

ولنبحث الآن فى ماهية المعروف وتقدير قيمته، فالشائع بين الناس أن كلاً منهم لا يعتبر نفسه مدينًا لك بالشكر إلا بمقدار ما أسديته إليه، فمنهم من يقدر معروفك عنده بمقدار ما نقدته من المال، ومنهم من يقدره بمقدار المنصب التى سعيت له فى الوصول إليه، ومنهم من يقدره بمقدار الخطر الذى أنقذته منه، بمعنى أنك لو أعطيت صاحبك مائة درهم كان شكرانه لك على قدرها، ولو أعطيته مائتين كان شكره على حسب العدد وهلم جرا، فقيمة الجميل ترتفع وتنخفض بارتفاع الأعداد وانخفاضها و وذلك من الخطأ بمكان عظيم، فإن العطايا والهدايا والصلات والمساعى إنما هى علامات ظاهرة تدل على المعروف وليست هى المعروف ذاته، لأن المعروف لا يحس بالنظر، ولا يلمس باليد، ولا يدخل فى الكيس، وإنما هو ما يدخل فى القلب، ولا يقدره قدره إلا ضمير الإنسان، والفرق عظيم بين السعى الذى تسعاه لصاحبك وبين الحاجة التى تسعى له فيها، فلا الذهب ولا الفضة هما المكونان للمعروف فى الحقيقة، ولكن نية الفاعل للخير عند فعله، وهذا هو الذى يجب تقديره فى النفس وإسداء الشكر عليه، وهنا لا يقال على القليل قليل ولا على الكثير كثير، وإن كان الناس لا يأخذون إلا بالظواهر، ولا يلتفتون إلا إلى مقدار ما يعطى وما يؤخذ، جاهلين قيمة المعروف فى ذاته، وغاب عنهم أن هذه الأمور التى

تتطلع لها أنظارنا، وتمتد إليها أيدينا ليست إلا حطاماً فانياً وعارية متنقلة، تنتزعها من أيدينا صروف الدهر، وتغلبنا عليها نوازل الخطوب، ولكن يد الدهر لا تقوى على أن تمحو ما سطر في الصدور من إسداء المعروف، بل هو ثابت فيها أبداً وأثره باق على الدوام، فلو فرضنا أنك أنقذت صاحبك يومًا من قطاع الطريق، ثم عادوا فاختطفوه في اليوم الثاني فإنهم لا يختطفون معه معروفك، وإنما سلبوه التمتع به ولو نجيت أولاد جارك من الحرق أو الغرق، ثم نزل بهم بعد ذلك مرض أودى بهم، فإن المعروف لا يزال في ضمير أبيهم.

فكل ما نأتيه من أعمال الخير والصلاح ونسميه بالمعروف والجميل والإحسان إنما هو أكمام تتفتق عن حسن النية في الميل والعطف، كما أن الأوسمة وشارات الرتب لا تؤدي بذاتها ما يفهمه الناس منها، وإنما قيمتها في نية التشريف بها، وكذلك تجد الفرق عظيماً بين الرتبة التي يسديها الملك من نفسه على نية التشريف، والرتبة التي تؤخذ منه بالوسائل لأن الأخيرة تنقصها نية التشريف الذي هو المقصود من جميع تلك العلامات المعروفة بالأوسمة وزخرف الملابس.

فتعريف المعروف إذاً هو الفعل الذي يصدر من تلقاء النفس لمجرد الرغبة في الخير، ويستمد فاعله لذته من اللذة التي يشعر بها المسدى إليه، فالنية هي التي تقوم الأشياء وتقدرها قدرها، قال عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات»، فرب صغير من الإحسان يكون كبيرا بصفاء النية فيه، ورب صلة عظيمة يحط قدرها كدر النية فيها، وهنا يقال «نية المرء خير من عمله»، أما إذا اعتبرنا أن قيمة المعروف هي قيمة العطية، وليس للنية دخل في ذلك كان الشكر حينئذ على قدر العطية، مع أن الأمر بالعكس فيجوز أن يكون ما تعطيه شيئًا قليلاً ويكون الشكر عليه عظيمًا، ويجوز أن يكون صاحب المعروف فقيراً، ولكن حالته عند الإعطاء تجعل عطيته مثل مواهب الملوك في القدر والشأن.

وقد اختلف الناس في تعريف الكريم، وإنما الكريم هو الذي ينسى ما هو فيه من الاحتياج عند رؤية المحتاج، وهو الذي يكون مغرمًا بالإعطاء في كل وقت من الأوقات، وهو الذي يرى نفسه كأنه الآخذ والآخذ منه كأنه المعطي له كما قال الشاعر.

«كأنك تعطيه الذى أنت سائله»

وهو الذى إذا رددت إليه معروفه نسى أن له عندك معروفًا، وعده يدًا لك عليه، وهو الذى لا ينتظر أن يأتيه صاحب الحاجة بل يسعى فى البحث عنه، ومن كان على خلاف ذلك فهو تاجر مراب تأخذ منه المعروف أخذك الدين من الغريم، أما الذى يعطى للسمعة والرياء والشهرة بالإحسان إن أنت أخذت منه شيئًا فحسابه على تلك الفخفخة، وليس عليك من حسابه من شيء.

كان من عادة «سقراط» أن يقبل الهدايا من تلاميذه كل على قدر ثروته، فجاء الدور يوما على تلميذه «ايشين» وكان فقيرًا، فتقدم إلى أستاذه وقال له: «ليس عندى ما أقدمه بين يديك مما يليق بقدرك، وهذا الموقف وحده هو الذى أدركنى فقرى وأشعرنى به، فأنا أقدم إليك كل ما أمتلكه وهو نفسى، فلا تحتقر هذه الهدية بما هى عليه، واعلم أنه إن كان غيرى أهدى إليك كثيرًا فقد أبقى لنفسه أكثر مما أعطى»، فقال له «سقراط»: وكيف تزعم أنك أهديت إلى شيئًا قليلاً إن لم تكن نفسك عندك كذلك، فقد وجب علىَّ إذاً أن أتقبلها وأعنى بها عناية خاصة، حتى أردها إليك بعد تثقيف العلم أحسن مما أخذتها منك، ففاق التلميذ بهديته هذه جميع أقرانه، وعلا عليهم فى المنزلة عند أستاذه الذى قدر نيته حق قدرها فوفى له بشكرها، فقد يتبين لك أن الإنسان يمكنه أن يكون أكبر المحسنين وهو أفقر الفقراء، وأن كيفية الإعطاء تعلو على العطاء.

وكيفية الإعطاء هى أن تبدأ بإعطاء الضرورى، ثم النافع، ثم ما يكون للتجمل والتنعم، أما الضرورى فهو الذى يقوم بحفظ الحياة، وموقعه فى القلوب أعظم مما يأتى للنفع والتجمل، فقد يجد الإنسان مندوحة عن ذلك التجمل والتنعم ويستغنى عن احتمال عبء الشكر عليه.

والضروريات تنقسم ثلاث أقسام: أولها مالا يقدر الإنسان أن يعيش بدونه، وثانيهما ما لا ينبغى للإنسان أن يعيش بدونه، وثالثها مالا يرضى الإنسان أن يعيش بدونه.

فيدخل فى القسم الأول الإنقاذ من المهالك وأشراك العدوات وانتقام الظلمة وصنوف الأذى، وكلما عظم الخطر الذى ذدته عن صاحبك كان الشكر عظيمًا على قدره،

فإن الإنسان إذا سلم من خطر كان على وشك الوقوع فيه، بقيت فى نفسه صورته على أبلغ تمثيل، وكلما تمثل للنفس الناجية ما كان ملمًا بها من الهلع والجزع وخوف المكروه، زاد ذلك في جمال الصنيعة وبهاء المعروف عندها، فتزداد شكراً، ولا ينبغى لصانع المعروف أن ينتظر بصاحبه اشتداد الخطر لإنقاذه ابتغاء المبالغة فى قيمة الصنيعة ليكون عظم الشكر بقدر جسامة الخطب، فإن ذلك مما تترفع عنه أريحية الكريم، وإلا فقد دخل الأمر فى باب المتاجرة والمرابحة.

والقسم الثانى يدخل فيه كل ما يمكن الإنسان أن يحيا بدونه حياة يفضلها الموت، وهو فقدان الحرية والشرف والفضيلة، والقسم الثالث تدخل فيه شهوة النفس فى زينة الحياة الدنيا: من الأموال والمقتنيات وكل ما تتطلع إليه النفس ويعز عليها فقده.

ويلتحق بذلك ما كان من الأشياء النافعة التى لا تكاد تحصى، كالمال بمقدار لا يفضل عن الحاجة، وكسد الرغبات المحدودة مما لا يدعو إلى التبذير والإسراف، وكالجاه والمنصب.

ويلتحق به أيضًا ما لا يعد من أسباب التجمل والتنعم، ومزية المعروف هنا إحكام مناسبته، فإذا أردت إسداء المعروف فى هذا الباب، فليكن ما تعطيه عزيزًا غير مبتذل، أو نادر الوجود فى زمانه أو نادر المثال فى زماننا، فإن لم يكن نفيساً فى ذاته أعاره الزمان والمكان من النفاسة ما كان ينقصه من قبل. فعليك بإعطاء ما يجمل وقعه فى النفس ويبهر النظر، لتكون ذكرى الصنيعة من المسدى إليه مقرونة بالإعجاب بما أهديته إليه.

ويجب عليك ألا تخطئ مواقع الهدية التى تهديها؛ كأن تهدى آلات الصيد والقنص إلى شيخ ضعيف، أو أن تهدى كتاباً إلى رجل أمى، أو لعبة إلى عالم فقيه، كما أنه يجب المحاذرة من أن تهدى ما يظن فيه التعريض والتقريع، كأن تهدى زقاً من الخمر إلى مدمن الشرب أو أزلام ميسر إلى مدمن القمار، ففى ذلك تعريض بالمهدى إليه يذهب بالصنيعة، بل يثير الضغن.

ومن حسن الكيفية فى الإعطاء أن نعطى على الطريقة التى نريد أن يعطينا غيرنا بها، وأن يكون الإعطاء مشفوعاً بما يدل على طيب الخاطر ورضا النفس، مقروناً بالمبادرة إليه، منزهًا عن التباطؤ، فإن كان هناك ما يلجئ إلى التريث، وجب أن يكون

مصحوباً بما يدفع عنه تهمة التردد، فإن التردد أخو الرفض ولا يستحق الشكر عليه.

وقد قدمنا أن المزية فى صنع المعروف هى فى نية عمله، فإذا وقعت المماطلة فى الإعطاء فكأنما وقع منا الرفض بعينه، وفى هذه الحالة نكون قد أعطينا على كره، ومن الناس من يكون عطاؤه حيائه وخجله أن يقابل الطالب بالرفض، وليس هذا من باب الكرم فى شيء، وحلاوة المعروف فى المسارعة مع الطلاقة والبشاشة، والإجابة قبل السؤال أولى وأجمل فى باب المعروف فتوفر على الطالب مضاضة الرجاء وذل السؤال، فإن صاحب الحاجة لا يسأل حاجته إلا وهو فى حيرة وتردد يترقرق فى وجهه ماء الحياء، فإذا كفيته مؤونة السؤال ضاعفت قيمة المعروف، ولا يكون النوال نوالاً محموداً إذا هو جاء من طريق الطلب والسؤال، فإن أغلى الأشياء قيمة ما أرقت فى سبيله ماء المحيا وأخلقت فيه أديم الوجه:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤالِ بدلاً وإن نال الغنى بسؤالِ

وإذا السؤال مع النوال وزنته رجح السؤال وخفَّ كل نوال

وما نكس الرأس سائل وتلعثم له لسان إلا لشعوره بذل موقفه، ومهما تعجل بالعطاء بعد السؤال فإنك لا تبرأ من نسبة التقاعد عن معونة صاحبك حتى أكرهته على مرارة السؤال، ومن الواجب أن تحس حاجته وهى فى نفسه قبل أن يكاشفك بها، حتى إذا أدركت حاجته وهى فى خفائها أزلت ما به من مضاضة التردد بين الإقدام والإحجام، فإذا سبقك إلى السؤال فعليك بقطع كلامه أن تطيل عليه ذلك الموقف، موقف الاستعطاء والاستجداء، وبادر ما استطعت إلى إجابة سؤاله بحالة يشعر معها بمسابقة ضميرك إلى إسداء المعروف.

وكما أن مبادرتك بإعطاء المريض الشيء الزهيد من الزاد والماء عند الحاجة تقوم مقام العلاج النافع، كذلك القليل العاجل الذى تعطيه صاحبك لتكشف عنه عوزه يكون خيراً من الكثير الذى يتخلله التباطؤ والتردد.

وعليك أن تضم إلى بشاشة الوجه وارتياح النفس عند إسداء المعروف لطف العتب على صاحبك لتقاعده عن قصدك إلى هذا الحين، كأن تقول له «إننى لا أغفر لك ترددك

وتقاعدك عن طلب حاجتك، كما أننى أشكرك على أن خصصتنى بها من دون أصحابك، لحسن ظنك بى وثقتك بحسن مودتى، واعلم أننى منذ اليوم رهن أمرك فيما تكلفنى إياه من خدمة، ولقد سامحتك فى استتارك منى بستار الخجل والحياء عند الطلب فى هذه المرة»، فإنك إن فعلت ذلك زدت فى مقدار الصنيعة، وأسست فى قلب صاحبك ركنًا من الشكر والحمد لا يهدمه النسيان ولا يودى به مرور الزمان.

ومن أكبر الأسباب التى تذهب برونق المعروف، بل تدعو إلى الجحود والكفران كثرة الوعد وطول التسويف، ومن الناس من يقصد ذلك ويتعمده للتباهى بتردد القصاد عليه وإقامة الوفود ببابه، كأنما فعل الخير عنده سلطان لديه يتمتع بمظاهر أبهته وجلاله بين حاشيته وأتباعه، ولا حق لمثل هؤلاء فى الشكر على الصنيعة بل هم الذين يلجئون الناس بهذه الأفعال إلى الكفران، لأن كل ما يدخل فى حساب الوعد والمطل يخرج من حساب الشكر والاعتراف بالمعروف، وربما أدى طول الانتظار وكثرة الوعود إلى البغض والحقد فى نفس صاحب الحاجة، وكما أنه من أفظع ضروب الوحشية وأبلغ القسوة تطويل مدة الإيلام للمقدم للقتل، وأن المرحمة والإنسانية فى الإجهاز عليه والتعجيل لا فى الإبطاء والتطويل، وأن المدة التى تسبق الإجهاز هى الألم كله، فكذلك انتظار المعروف مدة الوعود من أعظم ما تتألم له نفس السائل وليس يفى فيها الإحسان أبدًا بقدر تلك الإساءة، وقد جهل المكثرون من الوعد بالإحسان أن تراكم هذه الوعود يؤسس فى نفس الطالب حقًا ويجعله فى منزلة صاحب الحق الذى يجب قضاؤه فلا معروف ولا شكر، ولما كان فى إسداء المعروف علاج لداء الاحتياج، فالمماطلة فيه مدرجة إلى استفحال الداء وقلة نفع الدواء، ومن الناس من يجرى فى إسداء المعروف على طريقة التقطيع والتجزىء فلا يعطى صاحبه ما يريد إعطاءه إلا نجومًا فى أحيان متفاوتة، فلا تجزى صاحب الحاجة فى سد حاجته التي قصده من أجلها فى وقتها، ولا ينتفع فيها بما ناله أجزاء بل يبقى فى شدة حاجته وإن ظن صاحبه أنه سدها، والقليل مع التعجيل أدعى إلى الشكر من الكثير مع التأجيل، ومنهم من لا يصنع المعروف ويسدى الإحسان إلا إذا أصحبه باللوم والتعنيف ومرارة النصح وسوء التبكيت، فيكون معروفه مكروهًا ممقوتًا، كالجوهرة حفت بها الأفاعى، وكالزهرة تشول حولها العقارب بأذنابها.

طلب بعض المقربين من أحد الملوك صلة يوفى بها دينه، فطلب منه الملك أن يقدم له

جريدة بأسماء غرمائه، ثم جمعهم أمامه ووقع على جريدة أسمائهم بأنه أحسن بذلك المبلغ المطلوب على فلان السفيه المبذر- يعني صاحب الحاجة- لإيفاء كل ذي حق حقه من أرباب الدين، فخلص الملك بهذا العمل صاحب الحاجة من ثقل الدين ومن واجب الشكر في آنٍ واحد.

ومثل هذا لا يقال له معروف ولا جميل وإنما هو تشهير وتعيير.

وإسداء المعروف ينقسم أيضاً قسمين: قسم عام يقتضي الجهر به والإعلان، وقسم خاص لا ينبغي له غير الإخفاء والكتمان، فمن القسم الأول ما يكون المجد والشرف في إعلانه، مثل صدقات الفرائض وغنائم الجيوش ومكافأة الملوك على الأعمال الصالحة بعلامات الشرف وما يشابهها مما يزيد الجهر بها والإعلان في قيمتها، قال الله تعالى «إن تبدوا الصدقات فنعمَّا هي، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم، ويكفر عنكم من سيئاتكم، والله بما تعملون خبير»، وقال ابن عباس رضي الله عنه «صدقات السر في التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفًا، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها سبعين ضعفًا».

والقسم الثاني هو الذي لا تكون العطايا فيه من شأنها ارتفاع القدر وازدياد الشرف، بل من شأنها سد الحاجة ودفع العوز ومداركة الافتضاح، وهذا يجب فيه الكتمان وجوبًا محتمًا، وألا يعلم بالصنيعة أحد سوى المقصود بها وحده، وبعضهم يذهب إلى أن جمال الصنيعة لا يتم إلا بكتمانه عن نفس المسدى أيضاً، ولذلك يعمد كثير من ذوي المروءات إلى طرق الاحتيال في إيصال صلتهم لأصحابهم حتى يخفوا عنهم أسماءهم، ومن أجمل المدح في هذا الباب قولهم: «فلان لا تعرف شماله ما أعطته يمينه»، فإن قلت إن جهل المسدى إليه باسم صاحب الصنيعة معه مما لا يجعل لها حلاوة في نفس مسديها، بل يحرمه التمتع بشعور نفس صاحبه بمعروفه وانتظار الشكر منه عليه، قلنا إن هذا الكتمان واجب لإتمام المعروف في الحالات التي يكون فيها إسداؤه مما يحدث في نفس المسدى إليه مرارة الخجل والحياء، وهناك فرص أخرى يولي صاحب المعروف معروفه فيها، فتقوم موالاة المعروف بتعريفه لصاحبه، ويدرك ما سبق بما لحق، وفي الناس جانب عظيم يتبع معروفه طول المن والتذكير به، وهؤلاء هم أسوأ أهل المعروف

والإحسان عملا، وأقبحهم فعلاً، وأشدهم على النفوس ألماً وكرباً، وأولاهم بالكراهة والحقد عليهم بدل الشكر والامتنان، وكفى بهذا الخلق السيىء شناعة وفظاعة ما ورد فيه من الآيات المتعددة في الكتاب الكريم، فمنها قوله: «الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم»، وقوله عز وجل، «يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً، لا يقدرون على شيء مما كسبوا، والله لا يهدى القوم الكافرين»، ومن جوامع الكلم قولهم.

صنوان: من منح سائله ومَّن، مَنْ منع نائله وضنَّ، ومن قول الشاعر:

وإن امرأ أهدىً إلى صنيعة وذكَّرنيها مرةً للئيمُ

وطالما وصل المن والتذكير بالمسدى إليه إلى أن يتخلص منه بأى طريقة كانت ولو بإلقاء نفسه في المكروه، غضب بعض الملوك على أحد حاشيته وعزم على نفيه أو قتله، فشفع فيه بعض المقربين واستنقذه من ذلك الخطب الهائل، ولكن ما برح بعد ذلك يمن على الرجل بمعروفه ويذكره بجميله في كل زمان ومكان، حتى ألجأه إلى تفضيل الوقوع فيما أنقذه منه على ترديد هذا المن، فقال له يوماً: قم فردنى إلى الملك، فقد سئمت ما تكرره على من إنقاذك لى من النفى أو القتل، وتالله للوقوع فى أحد المكروهين أهون على من هذا المن، نعم إننى أقر لك بالفضل والمعروف، إذ أنقذتنى من الهلاك، وأنعمت على بالحياة، إذا كنت تركت لى ذكرى ذلك من نفسى، أما إذا كنت الذى تذكرنى به كما يذكر صاحب الدين غريمه به، فالموت الذى أنقذتنى منه أحلى عندى من هذه الحياة التى وهبتها لى، ولقد تبين لى أنه لم يدفعك إلى حسن صنيعك معى إلا حب الاشتهار به والتبجح بفعله، فاذهب فلا صنيعه لك عندى، ولاحق لك فى الشكر عليها.

فمن أول شروط المعروف الذى يستوجب الشكر ألا يذيعه صاحبه ولا يشيعه، فإن الإعلان نوع المطالبة بالتعويض منه.

ومن الواجب على صاحب المعروف أن يحبس لسانه عن ذكره، ولا يتشدق، بل يترك أمر إشاعته والتمدح به إلى المسدى إليه، فهو من شأنه وحده، إن شاء أشاعه وإن

شاء كتمه، وإلا فلا حق حينئذ لصاحب المعروف فى الشكر على صنيعه؛ لإنه يكون استوفى أجره هو بذاته عند ذكره له بين الناس، ويكون قد دخل فى صف ذلك الرجل الذى مازال يمن على صاحبه بصنيعه، حتى قال له ليس لك عندى صنيعة، فقد رددتها عليك مراراً، قال له :" ومتى كان ذلك؟" فأجابه "فى كل مرة ذكرت للناس هذه الصنيعة، وفى كل مكان أذعت فيه معروفك".

السمعة والشرف

قال شوبنهاور "الحكيم الألماني" يعلو القدر ويرتفع الذكر بين الناس من جهة المنصب والرتبة والسيرة وشرف الفضل، ولكل هذه الصفات في اعتبار الناس ونظرهم واعتقادهم وجه صحيح ووجه باطل .

فشرف المنصب هو إقرار الناس واعتقادهم بأن صاحب المنصب متمكن من الصفات والمزايا التى تؤهله للقيام بشئون منصبه، وتنبىء عن الكفاية والمهارة والإتقان المطلوبة منه لتأدية العمل بالضبط والتدقيق، وعلى قدر ما تكون دائرة المنصب واسعة ونطاق العمل ممتداً يكون إجماع الناس على الإقرار لصاحبه بالامتياز فيهم بمزايا الصفات التي جعلته أهلاً لولاية ذلك المنصب، فيرتفع ذكره ويعلو شأنه وتخضع النفوس لاحترامه، واجتماع هذه الصفات التى تؤهل للعمل فى صاحب المنصب السياسى هى كاجتماع الصفات اللازمة فى صاحب المنصب الحربى، فيكون جامعاً لصفات القوة والشجاعة والإقدام، ويكون مستعداً دائماً لتفدية وطنه بروحه في مواقف الدفاع عنه، وهذا هو الوجه الصحيح فى المنصب فأما إذا ارتقى المنصب من لم يكن له بأهل ولم يحسن القيام فيه بواجب عمله وكان خالياً عن كل مزيه فيه، فمقداره بين الناس واحترامه يكون للمنصب فى ذاته لا لشرف عمله فيه، فشرفه إضافى للمنصب لتجرده عن كل صفة ومزية فى العمل، فإذا سقط منه سقط بين الناس ذكره وامَّحى أثره، ولم يترك لنفسه مايذكِّر الناس به، وهذا هو الوجه الباطل فى شرف المنصب.

وأما شرف الرتبة وهى الألقاب والعلامات فليس لها فى ذاتها قيمة، بل قيمتها قيمة اصطلاحية بين الناس، وشأنها شأن مصطنع موضوع في مقابلة المكافأة بالمال، فهى أشبه شىء بالسفاتج والحوالات يحولها معطيها على الرأى العام ليوفى مبلغها بأنواع الاحترام والتبجيل وقيمتها تزيد وتنقص بمقدار ثقة الناس بمانحها، وأبلغ تأثير لها يكون فى عامة الناس الذين لا يدركون مزايا الأشياء إلا بحاسة السمع والبصر

(١) م ش ٢٢٩-٢٣٢ / ٨ -٢٩ نوفمبر ١٩٠٢ .

لسذاجة عقولهم وضعف مداركهم، ولما كان أكثرهم لا يدركون إلا ما ظهر لهم وتجلى لأعينهم ثم لا يلبثون أن يدركهم النسيان، كان كساء الرتبة وحلية الوسام كالإعلان على صدر صاحبها يذكرهم بوجوب الاحترام له، ويقول لهم "اعلموا أن هذا الرجل الذى ترونه ليس من أشباهكم بل علا عليكم بمزية".

ولذلك كان من الواجب على معطيها أن يدقق ويحقق عند الإعطاء ويحرص فيه حرص التاجر عند وضع اسمه فى ذيل الكفالة، لأنها شهادة منه توجب على الرأى العام أن يعترف بفضل صاحبها، وأن يخلى له الطريق فى التقدم عليه، وهذا الوجه الصحيح فى شرف الرتبة والعلامات، فإذا نالها من لايستحقها، زالت قيمتها وضاع قدرها، وكيفما نال الرجل منهم من الألقاب، وتحلى بالعلامات، فإنها لا تنيله من النفوسْ إلا احتراماً ظاهراً من ورائه ازدراء باطن، وكان المعطى كالبائع يضع على زجاجة الخل ورقة بأنها زجاجة عطر، وهذا هو الوجه الباطل فى شرف الرتبة.

وأما شرف السيرة فهو قيمة قَدْرِنا فى أفكار الناس، وحقيقة هذه القيمة حسن المعاملة مع الناس، واحترام حقوقهم واجتناب الظلم، والابتعاد عن ارتكاب الإثم فى سبيل منفعتنا، وهذا الشرف معرض دائماً للزوال، ويكفى أن يصدر عن الإنسان عمل واحد يعيبه فيمحو ماتقدم من محاسن سيرته، كأن يرتكب الإنسان جناية يستحق عليها العقاب، بشرط أن يكون الحكم قائماً على منهاج العدل.

وأما شرف الفضل الذى ينتج عنه حسن الذكر وجمال الصيت، فهو ما يفضل به الإنسان الآخرين، وهو وشرف السيرة أخوان، إلا أنهما يفترقان فى أن هذا يزول ويفنى، وأن ذاك يدوم ويبقى وفى استطاعة كل إنسان أن يتناول شرف السيرة ولكن ليس يمكن كل إنسان أن يحصل على شرف الفضل؛ لأن الفضل فى الناس قليل نادر لايكون إلا مستثنى فى أفرادهم، وهذا الشرف يتكون لصاحبه من وجهتين: من وجهة الآثار الأدبية، ووجهة الأعمال المادية، ولكل منهما منافع وفوائد ومصاعب ومشاق خاصة بهما لا تفارقهما ولا تزايلهما والفرق الكلى بينهما أن الآثار الأدبية تبقى بنفسها على أصلها خالدة على الدهر، وأن الأعمال المادية لا يبقى منها إلا ذكرها وحده كيفما كان العمل عظيما وشأنه رفيعاً، ثم تتضاءل وتتلاشى ويمحوها الزمن من الوجود بمروره عليها إن لم

يقيدها التاريخ فيرويها للأجيال على التحريف والتحويل، ترى ذلك واضحاً بين أهل الفتوحات من القواد والملوك، وبين أهل التأليف والتصنيف من العلماء والحكماء، ولا بقاء على الدهر مثل بقاء الصحف المكتوبة والكتب المسطورة، ثم إنه لابد للأعمال المادية من علل وأسباب تتولد عن ظروف الأحوال وأحكام الأزمان لا يتم تكوينها إلا بها، فشرفها وحسن الذكر بها ليس هو عنها في ذاتها، بل لما كان حولها من الظروف والحوادث التى تكسبها أهمية وتكسوها رواء، وهى من وجهة أخرى من الأمور العامة التى تتناولها جميع الأفكار، وتحيط بها جميع الفهوم، ولحسن الاتفاق فيها شأن كبير.

وأما الآثار الأدبية فلا حكم للحوادث عليها، ولا تأثير للظروف فيها، ولا يتعلق أمرها بغير صاحبها وحده، وهى لا يعتورها نقص ولا يعتريها خلل، بل تبقى ما بقيت على حالتها الأصلية التى وضعها عليها الواضعون، إنما الصعوبة هنا فى قدرها بين الناس حق قدرها ووضعها فى المنزلة التى تستحقها وليس يخفى أنه كلما كانت الآثار رفيعة جليلة في الأفكار قل عدد من يحيط بها ويتأهل للحكم عليها،وقد لايوجد فى كل وقت من يكون أهلاً لقدرها، وقد يوجد ولكنه يميل فى حكمه إلى الجور، وينحرف به الهوى عن الإنصاف، ولكن مع ذلك لابد أن يصلها حقها، إن لم تنله فى عصرها الحاضر نالته فى الأعصر اللاحقة بين أهل الخلو عن الغرض من ذوى الرأى والحكم وأرباب المعرفة والفضل، وبعبارة أوضح، إذا هى لم تحصل على الإنصاف من أعضاء المحكمة الابتدائية المعاصرين لها، حصلت عليه من محكمة الاستئناف التى يؤلف الزمن أعضاءها من نوابغ الأفاضل الذين يجود بهم واحداً فى إثر واحد ويمكنهم الحكم بفضل تلك الآثار بعد مرور الأيام عليها وتوالى الدهور، فحقها مضمون على كل حال، أما إذا وصل صاحبها إلى حسن الذكر وعلو الصيت ونال حقه فى حياته، فلا يكون ذلك إلا من باب حسن الاتفاق ومساعدة الأقدار وتوافق الظروف، وعلى أى حال "فإن حسن الذكر –كما يقول عنه أحد القدماء من الحكماء – لا يفتر عن ملازمة الفضل ملازمة الظلال للإجسام، وهو مثلها فى حركتها وسيرها، فتارة يكون من أمامه، وتارة يكون من ورائه، فإذا سكت عنك أهل عصرك ولم ينصفوك ولم يشهدوا لك بما أوتيته من الفضل لما يكون بهم من الحسد والبغض، أنصفك من يأتى من بعدهم، وردوا إليك حقك بخلوهم عن كل هوى وغرض" وهذا القول من هذا الحكيم القديم يدلنا أيضا على أن السعى فى إنكار ما ينفع الناس

من الفضل والانتصار لما يضر من الجهل، داء قديم في نفوس أهل النقص والعجز من كل زمان كما هو الحال فى عصرنا الحاضر هذا، وكلما كان شرف الفضل وحسن الذكر بطيء الانتشار كان رسوخه باقياً على الدوام،كالشجرة التى تنمو قليلاً وترسخ جذورها فتعلو فروعها، وما يكون منه سريع الانتشار سهل الحصول، فهو كالنباتات التى تزرع وتقلع فى فصول العام.

وأما القسم الباطل منه الذى يقوم على غير أساس،فهو كالحشائش الضارة بين الزرع تظهر وتنتشر فى لمحة واحدة، ثم تصبح هشيماً تذوره الرياح، وعلى قدر ما يكون صاحب الفضل مجهولاً فى عصره غريباً فى قومه، يكون معروفاً بين سائر الأجيال الآتية مذكوراً بين أهلها بحسن الذكر وجميل الثناء، وأمامنا تاريخ الفنون والآداب، يشهد لنا بأن أعظم ما أتى به الفضلاء والعلماء من نوادر الآثار لم يصادف من أهل زمانهم قبولاً، ولم ينل لديهم استحساناً،بل قابلوه بما شاءوا من الإغفال والإهمال، حتى جاء بعدهم من اتسعت أفكارهم للإحاطة به واهتدوا بعلو أنظارهم وحسن معرفتهم إلى تقدير قيمته فحكموا لهم بالإحسان، وأنزلوهم فى أعلى منازل الإجلال والإعظام، والسبب فى ذلك أن الإنسان لا يمكن أن يحيط من الأشياء إلا بما يناسب قريحته ويجانسها ويكون على وفق درجتها فى المعلومات، فلا يناسب أرباب القرائح ذات الجمود إلا الأشياء الساقطة، ولا تتسع أذهان العامة وإلا للأمور التافهة، ولا يوافق أهل الغباوة إلا حديث خرافة، ولا يطيق الفكر القاصر العاجز أن يتصور ما يصدر عن الفكر الواسع الكامل وإنما تأخذ القرائح والفهوم ما تتسع له من المعارف والعلوم، والقول الصحيح لا يستوى فى الفهم السقيم، ويقول الشاعر "جيلبير" فى هذا الباب ما معناه: " كم رأينا من صفات حميدة وآثار مجيدة لا يحلها الناس فيما بينهم محل الاستحسان، ولا ينظرون إليها بعين القبول وكم اجتمعوا على نبذ الحسن وأخذ القبيح لا فرق فى الزمان والمكان، فترى ذلك واقعاً فى كل أمة وفى كل موطن، وسواء فيه حديث الزمن وقديمه، فهل لهذا الداء يوماً من دواء يشفى الناس ويرفع هذا البلاء عنهم؟ ما أظن أن لهم غير علاج واحد، وهو أن ينقلب الأغبياء فى العلم أذكياء، ويصبح الجهلاء حكماء، ولكن كيف يتيسر هذا الانقلاب إلا بانقلاب الخلقة وتغيير الفطرة، وذلك غير ممكن الحدوث، فلم يبق غير الصبر والاحتمال لأولئك الذين لا

يحيطون بالأمور إلا من جهة النظر واللمس لا من جهة الفكر والعقل، وهم لصغر نفوسهم لا يزالون يرفعون كل جاهل سافل على كل عالم فاضل.

وزد على ذلك أن انتشار الذكر بين الناس بفضل الرجل الفاضل يحط من قدر معاصريه ويحط من شأنهم، فهم يسعون ما استطاعوا فى كتمان فضله وانتقاص منزلته، حتى لا تعلو على منزلتهم، ولا تغلب على شهرتهم، ولا يروق لمن كان حاصلاً منهم على شيء من حسن الذكر أن يشاركه فيه غيره ويزاحمه نده، ومن هنا يتضح لك الفرق العظيم بين الحصول على اعتراف الناس بشرف السيرة لأنه لسهولة طريقه وكثرة اشتراك الناس فيه لا يكون محلاً للتحاسد والتنافر، والحصول على حسن الذكر للفضل الذى تمتاز به النفوس على سواها، لما فى اعتراف بعض الناس لبعضهم بالفضل الذاتى من الغضاضة والكراهة، وكل إنسان منهم قادر على أن يكون له سيرة حميدة فلا يحسده عليها غيره، ولكن لا يقدر كل إنسان أن يكون له مثل فضل الفاضل، فهو لا يصبر على اشتهار ذكره بأمر لا يستطيع أن يشاركه فيه، ولا يرضى بأن يقر له بالمزية عليه فى حال من الأحوال .

وإذ كان الحصول على حسن الذكر بين الناس بفضل النفس الذاتى من أصعب الأمور وأبعدها منالاً، فدوام بقائه والمحافظة على وجوده من أيسر ما يكون، وهذا بخلاف شرف السيرة الذى يحصل عليه كل إنسان بأسهل الطرق ولكن يصعب بقاؤه وطول المحافظة عليه؛ لأنه يزول فى الحال عند ارتكاب أى معيبة واقتراف أدنى جريمة كما ذكرناه فى سابق القول، ولكن شرف الفضل لا يمكن زواله أبداً لأنه قد تم وكمل مجرد حدوث الأثر الذى ظهر من فضل صاحبه، ولو أنه اقتصر على هذا الأثر وحده ولم يتبع الأثر أثراً مثله، فإذا رأيت لأحد الناس ذكراً شائعاً وصيتاً ذائعاً قد امَّحى أثره من الوجود وكان عمره أقصر من عمر صاحبه فذلك هو الذكر الباطل الذى لم يستحقه صاحبه بفضلٍ فى ذاته وإنما ناله من جهل الناس وسوء تقديرهم لقدره وقبح اغترارهم به.

ولما كان حسن الذكر ليس صدى الفضل وظله، وكانت قيمة الإحسان فى نفسها خيراً من قيمة الاستحسان بين الناس، فرغبة الفاضل هنا تتجه لحسن الذكر الذى يتولد

عن الفضل، بل لذات الفضل الذى ينشأ عنه حسن الذكر، والحظ كله فيه، سواء انتشر صداه أم انزوى خبره، فالنفس تسعد به لذاته على كل حال، لأن أحسن الأحوال للعاقل أن يكون حسناً فى نفسه، والذى يهمه فوق كل شىء حسن صورته فى قلبه لا حسن صورته فى أفكار الناس، وجمال الفضل على خلاف جمال الوجه الذى تكون فائدته والتمتع به لأنظار الناس وحدهم دون صاحبه؛ فإن فائدته والتمتع به يكون لنظر صاحبه وإن لم يشاركه بقية الناس فى النظر إلى هذا الجمال، فإذا فرضنا أن صاحب الفضل لم ينل بين الناس ما يستحقه من شرف الذكر ورفعة الصيت؛ فإنه قد نال أهم شىء لديه وهو الفضل فى ذاته.

قال "شوبنهاور"الحكيم الألمانى: "وأما الذكر الباطل فهو الذى يقوم على غير فضل فى نفس الإنسان، وحظ صاحبه منحصر فيه دون الحظ من الفضل، ولكنه لايلبث أن تنكره منه نفسه وتسأمه لقيامه على أساس فيه، وربما اعتراه بالرغم من تبجح نفسه مثل الدوار فى صعوده إلى تلك المدارج التى لم يكن أهلاً لارتقائها، أويحدث فى نفسه شك بأن ما حصل عليه من الذكر هو تمويه باطل وأن نفسه فى عينه تماثل النحاس المموه بالذهب، فهو فى خوف دائم وقلق شديد أن ينكشف الطلاء ويزول التمويه ويسقط إلى الدرجة التى يستحق النزول فيها".

وأما حسن الذكر الصحيح الذى يبقى على مدى الأجيال الآتية فقل أن يصل رنينه إلى أذن صاحبه، ومع ذلك يعتبره الناس سعيداً ذا حظ عظيم يحسد عليه، لأن له فى اتساع فكره وعلو مداركه واشتغاله بما هو مطابق لطبيعته من وجوه الفضيلة وما يحلو له فى نفسه من ممارسة العمل فى ذلك ما يجعله فى نفسه سعيداً، وأساس سعادته قائم أبداً على ما احتوته نفسه من سعة الفضل والذكاء الذى يظهر أثره فى مؤلفاته، ويستجلب به استحسان أهل العصور اللاحقة، فاستحقاقه حسن الذكر بالفضل هو المكافأة التى يكتفى بها الفاضل وحدها فى عمله، وأما نيل الرجل الفاضل لحسن الذكر من أهل عصره وزمانه فهو شىء نادر يتعلق بظروف الأحوال واختلاف الحوادث، لأن جمهور الناس لا يصلون بمداركهم إلى تقدير قيمة الفضل، وإنما يتبعون فى ذلك آراء غيرهم من أهل الدراية وأرباب المعرفة والحكم، فهم ينطقون بحسن الذكر له على التقليد، وفى كل مائة شخص تسعة وتسعون ينظرون فى ذلك على رأى شخصٍ واحد، وحسن الذكر بين

المعاصرين وانتشار الصيت فيهم ليس له إلا قيمة ضعيفة عند صاحب الفضل كيفما كان عددهم عظيماً وهو لا يرى فى انتشار اسمه بينهم إلا صدى أصوات معدودة اقتدوا بها واتبعوا أثرها، ويكون حاله في هذا الباب مثل حال المغنى الذى يرى بعينه إشارات الاستحسان من الحاضرين، ثم يتحقق بعد ذلك أنهم كانوا كلهم صم الآذان، وأنهم لم يشيروا بإشارات الاستحسان إلا متابعة لواحد فيهم صحيح السمع من دونهم، وفي هذا ما يبين لنا أن حسن الذكر الذى نراه لكثيرٍ من المعاصرين بيننا قل أن ينقلب إلى ذكر مخلد يبقى على الدهور، وقد أشار "دالامبير" إلى ذلك فيما وصف به هيكل الذكر المخلد حيث قال " إن هذا الهيكل لا يسكنه إلا الأموات الذين لم يدخلوه فى حياتهم، وجماعة من الأحياء لا يلبثون أن يطردوا منه عند موتهم".

على كل حال فإن الرجل الفاضل لايدرك فى حياته الوصول إلى حسن الذكر الصحيح الذى يبقى على الأجيال إلا فى سن شيخوخته وعند آخر عمره، وإنك لترى ذلك واضحاً فى صور كبار الرجال وتماثيلهم التى حفظتها لنا الأجيال الماضية، إذ تجدهم كلهم شيوخاً بيض المفارق وعلى الأخص تماثيل الفلاسفة والحكماء.

بقى علينا أن ننظر فى الطريق التى توصل إلى حسن الذكر الخالد من جهة العلوم، وهو ينقسم قسمين: قسم ينصرف إلى العلوم الخاصة، وقسم ينصرف إلى العلوم الشائعة، ومقدار انتشار الصيت يختلف فيهما باختلاف العلوم فيكون متسعاً بسعتها ومحدوداً بحدها، فلو نظرنا مثلا فى عمل عالم امتاز بعمله فى حل المسائل الجبرية والرياضية، فإن ذكره يكون محدوداً ومنحصرا فى طائفته وأهل فنه الذين يدركون وحدهم دون بقية الطوائف فضل عمله، وعددهم فى كل زمان عدد محدود ودائرة حسن الذكر مقصورة عليهم، أما إذا كان ما يشتغل به الرجل الفاضل من العلوم أمرا شائعاً يتصل بمدارك الناس كافة مثل الاشتغال بعلم الأخلاق والمباحث النفسانية واختلاف الطبائع والغرائز، واستنباط الحقائق والأصول فيها، فإن ذكره يكون منتشراً وصيته ذائعاً على قدر اتساعها، وقدرما تفرد به من المزية في ذلك فوق غيره من أهل عصره، ثم يدور مع الزمن دورة الخلود والدوام، والطريق فى ذلك ليس بسهل، لأن مثل هذه العلوم الشائعة يكثر عدد المتناولين لها والمشتغلين بها، فالتفرد بينهم بالامتياز عليهم يحتاج إلى تعب عظيم، ولا يتمكن منه إلا صاحب العمل النادر والفضل الباهر.

وصاحب الفضل الدائم الذى ينتهى بحسن الذكر لابد أن يكون محسوداً بين الناس مبغضاً، والفضل أشد تعرضاً للحسد مما سواه من بقية المزايا التى يتفاضل الناس بها فى طبقاتهم، مثل المال والجاه والأحساب والأقدار، لانه أعلى المزايا درجة وأعظم الأقدار، قال فردريك الأكبر: «إن مقام النفوس الممتازة بالفضل فى مقام الملوك وفى ارتفاع درجتهم» قاله حين امتعض رئيس حجابه من جلوس "فولتير" – الكاتب الكبير – على مائدة الملوك وأبناء الملوك فى دعوة صنعها لهم الملك، وأنكر امتيازه بذلك على وزراء الدولة وقواد الجيوش وكبراء الحاشية الذين جلسوا على مائدة رئيس القصر وكل طبقة من طبقات أهل هذه المزايا لها من حولها عدد عظيم من الحساد يتحرقون فى أنفسهم غيظاً، وتضطرم صدورهم نيراناً على كل فرد من أفرادها لا يفترون أبداً ولا يسكنون عن السعى والكد، ليبينوا للمحسود بكل طريقة، إن كان ممن لا يخافونه ولا يتقونه، أنهم ليسوا بدونه درجة، وأنه لا يمتاز عليهم بشىء ولكن شدة تكالبهم وتهالكهم على هذا المسعى تنبئ بنفسها عن عكس هذا الرأى بينهم، وأحسن الطرق التى ينبغى للمحسودين أن يسلكوها مع جماعة الحاسدين هى أن يتباعدوا عنهم، ويقطعوا كل اتصال بهم، ويقيموا لهم فى وجوههم من دونهم سداً يضمن لهم كل انفصال عنهم، فإذا لم يكن عمل ذلك فى الاستطاعة وجب على المحسودين أن يتحملوا كل ما يصدر عن أهل الحسد فى حقهم من القدح والذم وفنون السعاية والوشاية وما شابه ذلك وأن يقابلوه بالإغضاء والهدوء، فتنضب تلك الموارد فى أيديهم، وتخمد نار الحسد بطبيعتها فى صدورهم.

والحسد بين الناس داء قديم لم يخل منه زمان ولا مكان، ومن قبيح الاغترار وخطل الرأى أن يتصور صاحب الفضل و الذكاء أن ظهور فضله بين الناس يقابل منهم بحسن القبول وانشراح الصدور ولطيف التأهيل والترحيب، بل لا بد أن يعتقد أنه يثير فى قلوب العدد الأكبر منهم ثائرة العداوة والبغضاء التى يكون أثرها فيهم شديداً بمقدار اضطرارهم إلى عدم الإفصاح عن أسبابها، وحجز النفس عن الإباحة، وبذل الجهد فى سبيل كتمانها وإخفائها، ولزيادة البيان والتفصيل فى ذلك يجب أن يتصور أن اثنين من الناس يخاطب أحدهما الآخر فترى فى الحال انه إذا أدرك أحدهما فى صاحبة علواً فى المدارك وارتفاعا فى الذكاء اعتقد فى نفسه على البداهة أن مخاطبه يرى فيه ويحكم عليه

بتلك الدرجة بذاتها فى انحطاط الفكر وضعف الذهن بالنسبة إليه، فينشأ فيه عن هذه المعارضة والمباينة بينهما رذيلة الحقد والبغض، وتستعر جذوة الكراهة والنفرة، ولذلك قال "براشيان": إذا أراد الإنسان أن يعيش فى راحة وسكون بين الناس فالطريقة الوحيدة لذلك هى أن يظهر فيهم مرتدياً بجلد أضعف الحيوانات فطرة وأبسطها إدراكا"؛ فالظهور بالفضل والذكاء بين الناس إيحاء إليهم باللوم والتعنيف على قلة جدارتهم وسوء غباوتهم. وصاحب النفس الناقصة لا يملك نفسه أن تغضب وتسخط عند مشاهدتها لصاحب النفس الفاضلة، وهو مدفوع بدافع هذا الحسد، وليس يخفى أن لذة الإعجاب بالنفس تفوق كل لذة عند الإنسان، ولا يحق له أن يرضى عن نفسه إلا عند مضاهاتها بنفوس الناس، ولا مزية عند الإنسان فى أمور الدنيا كلها أعظم فى عينه من مزية الفضل والذكاء، ولا زهو له فى نفسه إلا من جهتها؛ لامتيازه بها وفضله على سائر الحيوان، فمن مكروه الإقدام وسوء الحذر أن تتظاهر فيهم باعتلاء درجتك فى الفضل والذكاء خصوصاً إذا كان ذلك على أعين الناس وبمشهد الجموع؛ فإن ذلك يهيج فيهم حب الانتقام ويوقد فى صدورهم نيران التشفى، فيلجأون فى ذلك إلى أسباب السب والثلب، ويخرجون من دائرة التفاوت فى الفضل والذكاء إلى دائرة الإرادة النفسانية التى نحن كلنا فيها سواء فإذا كان لصاحب الغنى أو لصاحب الجاه اعتماد على احترام الناس له ورجاء عظيم فى توقيره بينهم، فإن صاحب الفضل والذكاء لا ينبغى له أن يؤمل فيهم مثل هذا الرجاء، وإن أحسن حظ لراحته وأجمل حال له أن يقيم فيهم على قلة الانتباه له وعدم الالتفات إليهم، وبخلاف ذلك يكون فضله أمامهم على الدوام نوعاً من أنواع التوقح والتبجح، ويكون فى أنظارهم مثل من امتلك شيئاً من دونهم بطريق الغصب أو الاختلاس ثم يجترئ على التظاهر به والتفاخر، فلذلك يضمر له كل إنسان فى نفسه أن يلحق به شيئاً من التحقير يتربص له كل فرصة، وأقصى ما يمكن صاحب الفضل الوصول إليه بينهم بكثرة التلطف والتواضع أن ينتزع منهم شيئاً من العفو والصفح عن ذنبه فى ارتفاع مداركه وعلو فكره مثل انتزاع الصدقة من أيديهم، وقد قال السعدى فى "الكلستان": "اعلم أن عند الرجل الجاهل من العدواة والكراهة للرجل الفاضل ما يربو أضعافاً مضاعفة على كراهة الفاضل للجاهل؛ فإن الجهل المحض والانحطاط فى الفكر يستوجب الرأفة والشفقة لا الكراهة والعداوة".

وإذا كان من أصحاب الفضل والذكاء ألا يلتفتوا إلى حسد الحساد ولا يكترثوا بهم، ولا يثير فيهم ما يأتونه معهم من آثار العداوة والبغضاء ثائرة الحقد والغيظ، بل تكون معاملتهم لهم دائماً معاملة الشفقة والمرحمة؛ فإن أهل الحسد والنقص لا يزدادون إلا عداوة لهم وكراهة، ولا يميلون أبداً إليهم، ولا يأنسون إلا بمن يكون على مثالهم أو أدنى منهم طبقة في قلة الفضل وضعف الذهن، وهم يفضلون في المعاشرة والمخالطة أهل الغباوة والجهل، كالمرأة المتوسطة في الجمال لا تميل في المعاشرة والمصاحبة إلى من تكون أجمل منها خلقة وألطف منها شكلاً، بل همها على الدوام أن تختار لها في ذلك من كانت قبيحة الوجه مشوهة الخلقة، ليتجلى للأنظار فضل حسنها عليها بالموازنة والمضاهاة، فكل امتياز في الرجال بالفضل والذكاء يدعو أهل النقص والجهل إلى إقصاء صاحبه، وإظهار البغض له، وافتراء المفتريات عليه، وبذل الجهد في نسبة النقائص والمذام إليه، وكل امتياز في النساء بالحسن والجمال يدعو إلى التباعد والتنافر بينهن، ويهيج الحسد والبغض فيهن؛ فإن مزية الحسن والجمال عندهن كمزية الفضل والذكاء في الرجال، ولهذا السبب ترى أهل الفضل في كل زمان لا ينالون حظهم، ولا يدركون ما يستحقونه من المنزلة بين الناس، ولا تتقدم بهم الحال إلى ارتقاء المناصب وعلو الدرجات التي لاتنال إلا بالتساعد والتعاون وسعي الناس بعضهم لبعض، ولايتيسر ذلك إلا لمن يسير على هوى الناس ويستميلهم إليه بما يرضونه من أنوا ع التملق وصنوف التزلف، وأصحاب الفضل، كما علمت، قوم لا يصبرون على ذلك، ولا يسلكون طريقه ولا ينزلون أنفسهم هذه المنزلة، ولا يضعونها في مثل هذا الموضع؛ فإن إحساس النفس بفضلها يحدث فيها من الأنفة والإباء ما يبعد بها عن هذه المواطن، ويترفع بها عن حطة هذه الطرق والوسائل، وإنه ليعز على صاحب الفضل أن يشهد على نفسه بفضل الجاهل عليه ليستميله إلى مساعدته، ويجتذبه إلى معاونته بما يروق في عين الجاهل من ارتفا ع مقام الجهل على الفضل، ولابد أيضاً في استرضائه للجاهل من إنكار فضله بنفسه وإخفاء ذكائه عليه، خشية أن يتولد في نفس الجاهل من ظهور هذه المزية فيه ما يتولد من النفرة والاشمئزاز منه، وفي ذلك مالا طاقة للنفس الأبية بحمله، وإنما يقوى على احتمال هذا المضض وهذا الصغار من كان ناقص الحظ من الفضل، منخفض الدرجة في الذكاء .

هذا هو السبب الأكبر في تقدم أهل الغباوة والجهل على أهل النباهة والفضل في كل عصر وجيل؛ فإنهم لجهلهم وغباوتهم يخفون على الناس ولا يثقلون بمزية عليهم، كما

أنهم يتحملون كل تفاضل، وتطيب نفوسهم لسلوك طرق النفاق والرياء، واستعمال أفانين التملق والخضوع، فيستحسنون ماليس بحسن، ويحترمون ما ليس يُحترم، فتميل إليهم القلوب وترغب فيهم النفوس، وينالون من المساعدة والمعاونة بين الناس مايصلون به إلى علو المنزلة وارتفاع الدرجة، وليس ذلك بمقصور على المناصب والمراتب فى الحكومات بل تراه شائعاً فى جميع المقامات والرتب التى تتبارى إليها النفوس وتشرف بها الأقدار مثل الرياسات الأدبية والعلمية وما شاكلها، لا نزال نرى مجامع العلوم "أكاديمى" آهلة بالأعضاء الذين لم يؤهلهم إلى الدخول فيها فضل باهر أو ذكاء نادر، وإنما أوصلهم إليها ضعف شأنهم فى الفضل والذكاء، وقوة استعدادهم فى اجتذاب القلوب واجتلاب المودات بحبائل التلطف والتزلف ووسائل المداهنة والتملق، وقل أن يرتفع صاحب الفضل الكامل مثل ارتفاعهم إلى تلك الجماعات إلا بعد طول العناء وشدة المناضلة فى أواخر سنى العمر وقرب انتهاء الأجل، وجملة القول فى هذا الباب إن الإنسان لا يمكن أن يدرك ماهو فوق طاقته وما هو خارج عن قدرة تصوره، والحكم على الشىء فرع عن تصوره، بمعنى أن الرجل لا يستطيع معرفة الفضل فى صاحبه إذا لم يكن له نصيب ظاهر فى التفضل، ولا يقدر له قيمة إلا على نسبة اتساع فكره أو ضيقه فى هذا الباب، فإذا كانت دائرة ذكائه ضيقة ومنزلته من الفضل ضعيفة لم يؤثر فيه كل مايمكن أن يجتمع للرجل الفاضل من صفات الفضل والكمال، ولم يحس به أدنى إحساس، ولم يبصر فيه إلا ماعسى أن يكون به من التهاون والإفراط فى بعض الصفات الشخصية التى تكون كالنقائص والمعايب فى أنظار الجهلاء، فيقفون عند حدها، ولا يدركون فيه ما سواها من أجل المزايا النفسانية فى الفضل والعقل والنباهة والذكاء، بل تكون أمام أنظارهم كالالوان أمام العميان، ولا يبصر نور الفضل إلا من استنار فكره منه وعظم فيه نصيبه.

وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه.

فضيلة الشفقة[1]

الشفقة شكل من انجذاب النفس إلى النفس عند حدوث الألم لها، أو هي مشاركتك غيرك في الإحساس بألمه، ومن مظاهرها المادية فيض العيون بالدموع، وهي لاتلبث أن تخمد إن لم يثبتها الإنسان في نفسه بالتصور والفكر، ولذلك ترى بعض الذين تنقصهم قوة التصور والتدبر يشاهدون حلول الألم بإخوانهم ولا يتألمون لهم.

فلابد لاستكمال هذه الفضيلة في النفوس حينئذ من شرطين: حدة التصور، وكثرة التجارب، أما حدة التصور فإنها تجعل الإنسان أهلاً لأن يدرك انفعال غيره ويحس ألمه، بل يحل محله في الإحساس بالألم وهذا نوع من وحي النفوس بعضها إلى بعض حتى يصير قلب الإنسان كالمرآة ينطبع فيه ماينزل بقلب صاحبه وأما التجارب فلأنها تمكن الإنسان من الإحاطة بمقدار الألم في غيره ومعرفته له بما كابد من أمثاله وقاساه، ولا تتم المشاركة في التألم إلا بتذكر ما وقع للإنسان من أمثاله، لذلك نجد أن من كان أقل الناس آلاماً وأحزانا يكون أبعد من سواه عن التوجع لأحزان غيره، ولا يعظم إدراك الإنسان لآلام أخيه إلا بما جربه منها في نفسه .

وجملة القول إن نمو الشفقة في النفس لا يكون إلا بمقدار قوة الحافظة، لأن التجارب ليست إلا مجموعة من آثار ما مر على النفس مدخراً في حافظتها .

وتعزى الشفقة أيضًا إلى الأثرة وحب النفس، فإذا شاهد الإنسان أخاه في الإنسانية على حالة التألم رجع البصر كرة إلى نفسه فأحس بخلوها منه، وتجلت له سلامته بجانب ألم صاحبه، كما يحس من بالشاطئ سلامته عند مشاهدة الغريق يغالب الأمواج وهي تغوص به إلى قرار البحر، والنفس تخشى أن تقع يوماً فيما وقع فيه غيرها من الآلام، وتكون الشفقة هنا ناشئة عن توقع حلول المكروه بنا كما وقع لأمثالنا، فنفرض أنفسنا على مثل حالة المتألم فتكون شفقتنا عليه في نفس الأمر إشفاقًا على أنفسنا وبكاؤنا عليه بكاء على أنفسنا.

---

(١) م.ش ٢٠٤ /١٧ مايو ١٩٠٢ (تحت عنوان «فضيلة الفضائل»)

فأصل الشفقة يتركب من فرعين، كما قدمنا: الأول اشتغال الفكر بتصور الحالة التى عليها غيرنا، وما انطوت عليه نفسه من الأحزان والأكدار، والثانى اشتغال الحافظة بالبحث فى ماضى الحوادث عما وقع لها من أشباه تلك الآلام، والنتيجة أننا نتلبس بحالته ونصطبغ بصبغته.

هذه هى الشفقة فى حقيقتها وكمالها، والفرق بين هذه الشفقة المستكملة بالفكر والبحث، وتلك الشفقة الطارئة التى تنشأ عن مجرد الانفعال النفسانى لوقوع غيرنا فى الألم، كالفرق بين العقل والغريزة، وبين الإرادة والشهوة، وبين القياس والشعور.

والشفقة، وإن كان من أسبابها الأثرة وحب النفس كما ذكرناه، تتغلب عليهما بما تدفع الإنسان إليه من وضع التألم، ورضائه بقبول الألم الذى هو سالم منه وبعيد عنه، ومساواته نفسه بالمتألم، ومشاركته فى التأثر به مما يتأثر به سواه.. وهى على هذه الصفة لتجردها عن الغرض الذاتى واجتلاب الألم إلى النفس حيث لا حاجة إليه، تعلو على بقية الأخلاق الفاضلة التى ترجع فى الأصل إلى طلب الإنسان لمنفعته، فيرتفع قدرها على سائر الفضائل بمقدار تنزهها عن طلب المنفعة .

والدليل على أن الشفقة من أفضل الفضائل طرًا أن الفضيلة إذا بالغ الإنسان فيها وأفرط انتهى به طرفها إلى الرذيلة، كفضيلة الشجاعة ينتهى طرفها إلى التهور، وكفضيلة الحلم ينتهى طرفها إلى الجبن، إلا هذه الفضيلة، فإنك كلما بالغت فيها وتطرفت تكامل بهاؤها وتجلى جمالها.

ومن أقصى ما يمدح به الرجل الفاضل أن يحسن إلى من أساء إليه، والشفقة فى كمالها إن تكاملت لاتفرق بين القريب والبعيد، ولا بين العدو والصديق، ولا تتناول من تألفه النفس وحده، بل تتناول من يخالفها وينافرها؛ إذ تزيل ما بين النفوس من الحجب، وتعتبر الناس فى تأثرها من آلامهم على السواء.

ومن الدليل أيضًا على رفعة قدر هذه الفضيلة، ما تستبشعه وتستقبحه عند مشاهدتها للأفعال التى تتحقق فيها خلو الفاعل من تلك الفضيلة، فإذا رأيت أماً تجرع طفلها سماً زعافاً، لم تقل لأول وهلة كيف أقدمت هذه الأم على تلك الفعلة ولم تراقب عقاب الدنيا والآخرة، ولم تقل إنها خالفت سنة الوجود فى العمل على بقاء النوع ولم تقل

كيف أخلت بتتميم عملها الذي قدرته له الطبيعة بل تقول أول ما تقول: كيف صار هذا القلب جماداً خالياً من الشفقة؟.

وفضيلة الشفقة مصدر لكثير من الفضائل، وحسبك أن الفضيلتين اللتين هما جماع الخير بين بنى الإنسان فى الوجود، واللتين نوه بهما الخالق عز وجل، ونبه خلقه إلى اتباعهما، وأخذ على الناس العمل بهما فى قوله سبحانه وتعالى: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان"، متولدتان هن هذه الفضيلة؛ لأن الشفقة تكفنا عن مباشرة الأذى، وتحجبنا عن إيقاع الإيلام بغيرنا، فهى منبع العدل وذلك تعريفه، ثم إنها تبعث النفس على تخفيف الآلام عن الناس، وتدعو إلى فعل الخير معهم، وهو أصل الإحسان وذلك تحديده، كما تدعو إلى المساواة بين الناس فى التألم وتقررها كما يقررها العقل، لأن من أصول الشفقة أن يضع الإنسان نفسه فى منزلة غيره ويحل فى محله، ويهتم بأحوال الناس اهتمامه بأحوال نفسه، فيكره لهم ما يكره، ويحب لهم ما يحب وهذا هو معنى المساواة فى أكمل مظاهرها.

وكل ما كان من معانى التكافل والتضامن والتعاضد والتعاون فى الجماعة البشرية داخل تحت معنى الشفقة.

وكفاها رفعة بين الفضائل أنها تتجاوز بالإنسان دائرة العمل بها فى الإنسانية إلى دائرة العمل بها فى الحيوانية، وليس فى نظر الإنسان أبشع ولا أفظع من إيقاع الألم بالحيوان وليس فى جميع الأعمال السيئة التى يأتيها بعض الناس مع بعض ويفعلها الإنسان بنفسه، وأقبح وأشنع من عدم التأثر لما يقع على الحيوان الأعجم من الألم.

فإذا تبلد الناس وجمدوا وأغفلوا هذه الفضيلة، وتقاعسوا عما تدعو إليه من فعل الخير والإحسان ومعاونة إخوانهم فى الإنسانية عند حلول الآلام بهم ونزول المصائب عليهم، كانت منزلة إخوانهم لديهم أدنى من منزلة الحيوان، ومنزلتهم فى أنفسهم أدنى من منزلة الجماد.



الصيت والذكر[1]

لرفعة القدر وعلو الشأن الذى ترغب فيه النفوس وتتجه نحوه المساعى طريقان: طريق الفضل القائم فى النفس، وطريق الاتفاق في وقائع الأحوال والتناسب فى ظروف الزمان، أما الطريق الأول فهو صعب المرتقى وعر المسالك عظيم الشقة كثير التعب والنصب، كما تتبينه فيما يقاسيه أهل الطبقة المشتغلة فى الناس بالعلوم والمعارف، وأما الطريق الثانى فهو ذلول المركب سهل المنال قريب المسافة، كما ترى الحال فى أهل الغنى وذوى المناصب وأرباب الفتوح.

والأعمال والآثار التى تقوم عليها رفعة القدر وعلو الشأن تجرى فى طريقين: طريق الخلود والبقاء، وطريق الزوال والفناء، وقد يبقى الذكر مع بقاء الأثر، وقد يزول الأثر مع بقاء الذكر، فالأعمال الخالدة مع بقاء الذكر هى آثار المؤلفين والمصنفين من العلماء والحكماء، فإنك لاتزال ترى إلى اليوم " أرسطو" مثلاً قائما بيننا بكتبه، يخاطبك بفكره، ويرشدك برأيه، وترى " ابن سينا" بمصنفاته، يلقى إليك بأقواله ويدلى إليك بمذهبه فكأنك تسمع بهما وتراهما بعد أن تولت بأشخاصهما القرون، وعفت قبريهما الدهور، والأعمال البائدة مع الذكرى الباقية هى مثل فتوح " الإسكندر" مثلاً، وكنوز قارون، لا تزال تسمع إلى اليوم بالإسكندر ولا ترى أثراً من ملكه، ولا تفتأ تذكر قارون ولا ترى ذرة من ذهبه.

واتساع الشهرة وانتشار الصيت بين الناس برفعة القدر وعلو الشأن يكون من جهة إدراكهم لِكُنْه الفضل في العمل أحياناً، ويكون فى الغالب من جهة إدراكهم للعمل من غير تحقيق ولا التفات إلى قدر الفضل فيه، ولما كان الفضل ليس بشائع فى الناس وليس يدركه إلا من نال حظًا منه، كان الحصول على الشهرة والسمعة وارتفاع الذكر بين الناس من جهته من أصعب الأمور وأبعدها منالاً، وقل من نال من سواد العلماء وجمهور الحكماء شيئاً من هذا القبيل فى حياته وأدركه قبل مماته، ومن رأيته وصل منهم إلى شبه حظ من الرفعة والشهرة ونصيب من حسن الذكر والصيت بين أهل جيله قبل أن يطويه

---

(١) (مصدر هذا المقال غير معروف)

الدهر، فلا يكون مرجع ذلك لفضله وحده بل لظروف معينة جادت بها الأقدار، والسبب فى ذلك أن الناس يرون أنفسهم متساوين فى الخلقة، ويعز عليهم أن يقع التفاوت بينهم فى مزايا النفس فيتولد منهم لذلك ماشئت من التحاسد والتغابن وشدة التنائى عن الإقرار بالفضل لصاحبه، وعن إشهادهم على أنفسهم باتصافه بمزية فى نفسه من دونهم، الناس أعداء ما جهلوا، فإذا مضى صاحب الفضل من بينهم لسبيله وخلا مكانه، انجلت عن أبصارهم غشاوة الحسد، فتبينوا حقيقة فضله، وعلموا مقدار علمه فنوهوا باسمه، وأولعوا بذكره، وهناك شهرة كاذبة وسمعة باطلة لا تقوم على فضل، ولا تدور على عمل يستحقها، ولكن انحطاط الأفكار وقصور المدارك يولد لصاحبها قدراً باطلاً فى النفوس المنخفضة لانخفاضه إلى درجتها واجتماعه معها فى انحطاطها، فإذا ارتقت الأفكار واستنارت الأذهان ظهر لها انخفاض شأنه، فاعتلت عليه وخلفته وراءها ساخرة منه هازئة به، فيسقط اسمه، وينقرض ذكره فى حال حياته أو عقب مماته، فلا تسمع له ذكراً بعد أن لم يكن يسمع أحد بغير ذكره، وبعد أن كان لا يدور على الألسنة غير اسمه.

أما اتساع الشهرة وانتشار الصيت من جهة الأعمال التى لا يكون لصاحبها فضل فيهما لذاته فهو أقرب ما يكون وأيسر ما ينال بين الناس؛ لأن الفضل فيها بينهم ليس للشخص ولا لمزية امتاز بها من سواه، بل الفضل فيها لوقائع الأحوال وتصرف الحوادث، فلا يبقى محل للحسد والغبن؛ ولأن كل إنسان يرى نفسه أهلاً لها فلا تمتنع عليه إذا صادفته لحظة من إقبال دهره، وأدركته لمحة من حسن الاتفاق فى سيرته، وفوق ذلك فإن مثل هذه الأعمال الناشئة عن أحكام الزمن سلطان الحوادث هي من الأمور الشائعة المتداولة التى تتناولها كل الأفكار، ولا يصعب على الناس خاصة وعامة سرعة إدراكها وفهمها، فتكون الشهرة على حسب ذلك فى الاتساع والانتشار، وكل الناس يدركون معنى السعادة في الغنى، وقل من يدرك فيهم معنى السعادة فى الحكمة، وكل الناس يدركون معنى الفوز والانتصار فى الحروب، وليس كل الناس يدركون معنى التعمق والرسوخ فى العلوم، لذلك ترى أن أكثر من ينال رفعة القدر وشهرة الذكر بين الناس فى أسرع وقت وأقرب مدة هم قواد الجند بقطع النظر عن كل فضيلة ومزية فيهم إذا انتصروا يوماً فى واقعة من الوقائع وفازوا فى معركة من المعارك، وربما لم يكن لهم أقل أثر من العمل سوى وجودهم فى قيادة العسكر، ولم يقع الانتصار فيها إلا بحكم الاتفاق

وتقدير القضاء مما هو خارج عن قدرتهم بعيد عن تصرفهم، وكم انتصر القائد بأدنى سبب وأوهى علة، وكم تبلج له الفوز وهو فى ظلمات اليأس وعند انقطاع الرجاء بهفوة من عدوه وزلة من محاربه لم تخطر له بالخاطر، ولم تجر له فى الحسبان، وكم تولد الانتصار أيضًا بعدة أمور لا دخل لها فى مهارة القائد، ولا فى حسن تدبيره، مثل جهل العدو وسوء اغتراره، وقلة عدده ونقصان عدته، أو لبعض العوارض الطبيعية فى رداءة الموقع ونزول الأمطار، واتجاه الشمس واكفهرار الجو ونحو ذلك من الأسباب التى لا تعد ولا تحصى، فما هو إلا أن تجود المقادير على أحد القواد بسبب من هذه الأسباب فينتصر بها على عدوه، حتى ترى الناس كلهم أنصاره وأحزابه، ينوهون بذكره، ويتباهون بعمله، ويشيدون باسمه، ويضعونه فوق الرؤوس، لا لأنه قد علم مالم يعلمه سواه من فنون الحرب، أو أنه ابتكر طريقة فى اللقاء لم يهتد إليها غيره، ولكن لمحض كونه نال الفوز على عدوه بأى طريقة، فهو يشخص فى أعينهم صورة الانتصار؛ وكفى بها فضلاً لديهم، وكفى بها مجداً له وفخرا وصيتاً وذكراً.

مقالات لم تنشر في كتاب

اكتساب ملكة الإنشاء بحفظ الأشعار[1]

(وهى المقالة التى أنشأها حضرة العالم اللغوى الفاضل محمد بك المويلحى وتلاها فى الجلسة الأخيرة من جلسات المجتمع العلمى).

ثبت وتقرر بالإجماع لدى علماء اللغات المختلفة أن الإنسان لا تحصل له ملكة جيدة فى الإنشاء الا إذا لاك محاسن القول من اللغة، ومضغ ما جاء من منشورها ومنظومها وكان مثله فى ذلك مثل النحلة تروح وتغدو على غصون الأشجار المتنوعة تنتقى منها أطايب الأزهار وغرائب الأنوار، فإذا ساغتها مجت من مجموعها شهداً فيه شفاء للناس.

وإن أنضر زهرة فى أكمام اللغة لهى الشعر، فحفظ الأشعار أذن هو العمدة فى تربية ملكة الإنشاء والمشرع العذب الذى يصدر عن الكاتب بليغاً، والأصل الذى تتفرغ عنه بلاغة الخطاب فلو اتقن المتعلم أفانين اللغة العربية وقواعدها وقوانينها من بيانها وبديعها وصرفها ونحوها، وكان خلو الذهن صغر الوطاب من حفظ الأشعار والتمرن على التفريق بين محاسنها ومقابحها وانتقاء الحسن وانتباذ القبيح، كان كالصانع استجمع لديه آلات صناعته وعرف أن كل آلة منها تصلح للعمل الفلانى ولا عمل عنده ولا مثال لديه يحتذيه فى العمل، ومن الناس من يغتم باستكمال تلك الأدوات له فيطمئَن لها ويسكن عليها ويرى نفسه أنه يكفيه لبلوغ العلم معرفة قواعده، كالحكيم الفيلسوف يتضلع من قواعد الحكمة ثم يتلقاها الناس عنه وهو مع ذلك أبعد الناس جانباً وأنأهم ناحية عن رياضة أخلاقه على نظام الحكمة، ويقول موسيو رينان الفيلسوف الفرنساوى: «أن العلم بقواعد الحكمة لا يفيد الحكمة كما أن العلم بقواعد فنون الأدب لا يفيد الأدب بل لابد لذلك من الممارسة والتروض».

واختصصنا الشعر بالحفظ دون النثر لأن أبيات الأشعار أعلق بالذهن وأسهل للحفظ، وأدور فى الخلد وأخلد بالضمير ولأنها أجمع لجوامع الكلم وفخامة التركيب

---

(١) نشر هذا المقال فى جريدة «المقطم» ١٨ أغسطس ١٨٩٣

وجزالة التعبير وانتقاء الألفاظ وبراعة الأسلوب ودقيق المعانى ورقيق التشبيه وجميل الاستعارة ولطيف المجاز فإذا حفظ المتعلم منها مقداراً كافياً مع الإمعان فى مطالعة المنشور أيضاً تكونت له ملكةُ جيدة مع جميع الفروع ورسب فى ذهنه شىء صالح فى أحاسن تلك التراكيب والتقطت قريحته منها لآلىء السلاسة والانسجام وهذا معنى قول أبى تمام: «ينبغى لمن يعانى الإنشاء أن يحفظ شيئاً كثيراً من جيد الشعر ثم يتناساه فيبقى له بعد ذلك ملكة القول الفصيح».

وإنا نجد هذا الأمر قليل الاعتناء به في مدراسنا، وقد اقتصروا من هذا الباب على حل بعض الأبيات وهذا وحده لا يكفى، لأن الغرض هو أن تسيل روح اللغة فى القرائح، وروح اللغة فى قصائد الأشعار فإذا لم يتكامل ذلك للمتعلم وخرج من المدرسة خالياً من ذوق الشعر والوقوف عليه لم يلتفت إليه طول حياته، ولئن تاقت نفسه إليه فالشواغل الدنيوية تحول بينه وبين الغرض، وإذا فرضنا أنه وجد اتساعًا من الوقت وميلاً من نفسه لذلك فإنه لا يروق فى عينه من الشعر إلا الساقط المبتذل لسرعة تناوله على الفهم، فيصبح لديه كل موزون شعراً وكل مؤتلف فى أواخر الحروف سجعاً لأنه ليس عنده محك للفصاحة يفرق به بين الحالي والعاطل، ولا تتم له ملكة الإنشاء التى تنمو إلا بالتمييز بين الفاسد والصحيح والحسن والقبيح ونقد الجيد من الردىء، وإن عالج نفسه على الإنشاء جاء بالساقط السخيف، وكما يقول ابن خلدون فى مقدمته ما معناه أن الشاعر يقول الشعر الجيد إن كان حفظ من الشعر أجوده وبالشعر السافل أن حفظ الساقط منه.

ولو جئنا له بقصيدتين، إحداهما للشيخ ابن الفارض مثلاً والأخرى لمسلم بن الوليد، لمال ميلة واحدة إلى قصيدة الشيخ لدرجة نزولها فى السهولة واستهجن قصيدة صريع الغوانى، ولو أطلعناه على قصيدة للنابلسى ثم لمح بعدها قصيدة لأبى تمام لفضل الأولى على الثانية لما احْتَوَتْه هذه من غرابة التراكيب والألفاظ التى لم يألفها ولم يتروض عليه طبعه، لكنه لو كان تلقى فى المدرسة شيئاً عن شعر هذين الشاعرين المتقدمين ثم اطلع بعد ذلك على ما سواه من شعر المتأخرين لنبذه وأنف منه ولتبين له الردىء، بمعرفة الجيد، ولحدث له من طول الانتقاد والتمييز بالمقابلة وتصرف الفكر فى اجتناب السافل واختيار المرتفع نمو تلك الملكة الصالحة التى بينا أن البراعة فى الإنشاء لا تكون بدونها،

وتقريراً على ذلك فإننى اقترح على المجتمع أن يكلف بعض الأفاضل من أعضائه ليشتغلوا بانتخاب جملة عظيمة من جيد القصائد لرواج من الغرض، إلا أن الشعر ينقسم إلى أربع طبقات: الجاهلية والمخضرمين والمولدين والطبقة الأخيرة من الشعراء الذين وصل بهم التغالى فى طلب الرقة والسلاسة إلى درجة التكلف والتعقيد والتنطع فى القول، فلا يليق الانتخاب من هذه الطبقة ولا من الطبقتين المتقدمين لما فيها من استعمال الألفاظ اللغوية التى يمل منها المبتدئ فى الاطلاع على الأشعار، وإنما يكون الاختيار من طبقة المولدين من أوائل القرن الثانى إلى أواخر القرن الرابع الذين أخذوا من الحضارة رقتها ولطافتها ومن البداوة عدم تكلفها وتعسفها.

ولسنا نعدم من عناية القائمين بأمر المعرف فى ديارنا أن يقرروا حفظ شىء مما يتم انتخابُه على شبان المدارس، بشرط أن يكون ذلك عند السنة الأخيرة من الدروس فإن ذهن التلميذ حينئذ يكون بلغ درجة تؤهله للميل لإدراك محاسن اللغة وفهم تراكيب البلاغة، وأن ينبه المعلمون عند إلقائها على التلميذ إلى تلك المواضع من جهة الألفاظ والمعانى حتى يدرك لذتها وحلاوتها، ويرشدوه إلى طريقة الترنم فى الإنشاد فأنه أدعى لرسوخه فى الذهن ومسيسه بالقلب، فإذا تم ذلك مال التلميذ إليه بكليته ولم يهمل الاشتغال به بعد مفارقته للمدرسة مهما كانت مشاغله فهو يغذ السير فى هذا الطريق من نفسه ولا يفتأ سالكًا له حتى يتوصل إلى حسن الإنشاء بدون كلفة عليه بل بإدراك لذة فيه.

وليس ينصرف غرضنا مطلقًا إلى الاشتغال بنظم الشعر والتعلق بقوله فإن ذلك ضياع للوقت واشتغال بباطل، مادام المستعمل عندنا فى مواضيع الشعر لا يتعدى أنواع الغزل والمديح والهجاء وما شابهها، وقد استوفى المتقدمون القول فيها بما لا يشق فيه غبارهم ولا يدع مقالاً لقائل، وما دام الشعر غير مستعمل فيه للآن عندنا جملة من مواضيع الحياة ومطالبها، كما هو عند الإفرنج اليوم وإنما الغرض الذى نرمى إليه هو ملكة الإنشاء الجيد للنابغين فى مدارسنا بحفظ الأشعار، فقد سمعنا كثيراً من يقول إن عدد المنشئين بيننا ليس على نسبة العناية المبذولة فى تقدم العلوم العربية فى مدارسنا وانتشارها.

نقد ديوان شوقي[1]

- ١ -

الانتقاد قائد الاجتهاد والإحسان، ورائد الإجادة والإتقان، وهو للإنسان بمنزلة الصيقل للصوارم والصيرفي للدراهم . ولولا النقد لما امتاز الصحيح من الفاسد، ولا تبين الحالي من العاطل، ولما قيل للإنسان في كل عمل يعمله أحسنت وأصبت، ولوقف الناس في سبيل الإحسان ولم يهتدوا مواضع الخطأ ومواقع الزلل.

ولا يكون الإحسان ظاهراً متبلجاً والإتقان واضحاً متألقاً إلا عند إطلاق الانتقاد وصدق القول، وقد كان الرجل في إقبال دولة الفصاحة وعز مقام الأدب إذا أنشأ رسالة أو نظم قصيدة عرضها على نقاد الكلام فاستحسنوا منها الحسن ونبهوه إلى القبيح فيحذف منها مالم يرضوه أو يرجع إلى تهذيبه وتنقيحه فترسخ فيه ملكة الإتقان ما تكرر عليه الانتقاد، حتى بلغ بكثير من الشعراء أنهم لم يكونوا ليعرضوا قصائدهم على ممدوحهم إلا بعد أن ينتقدها ويرضاها من كان مكلفاً على أبوابهم بوظيفة الانتقاد من أساتذة الكلام وجهابذة البيان، وهذا أبو تمام- وناهيك بعلو قدره في الشعر - قد وفد على عبد الله بن طاهر بخراسان فمدحه وكان عبد الله لا يجيز شاعراً إلا إذا رضيه أبو العميثل وأبو سعيد الضرير، وكانا على بابه لانتقاد الشعر، وكانا ربما أسقطا القصيدة بجملتها إذا لم يرضهما البيت الواحد منها، فقصدهما أبو تمام وأنشدهما القصيدة التي أولها:

هـن عـوادي يوسـف وصواحبه		فعزمـاً فقدماً أدرك السؤال طالبه

فلما سمعا هذا الابتداء أسقطاها فسألهما استتمام النظر فمر بقوله:

وركبٌ كأطراف الأسنة عرسوا		علـى مثلـها والليل تسطـر غياهبه

(١) نشر «نقد ديوان شوقى »كسلسلة مقالات فى م. ش ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤ / ٦ أبريل- ١٨ مايو ١٩٠٠

لأمـر عليهـم أن تتـم صـــدوره وليـــس عليهـم أن تـتم عواقــبه

فاستحسنا هذين البيتين وأبياتاً أخرى وهـي:

وقلقـل نابى من خراسـان جأشها فقلت اطمئنى أنضر الروض عازبه

إلى ســالب الجبار بيضــة ملكه وآملــه غـــاد علـيه فسالــــبه

فعرضا القصيدة على عبد الله وأخذا له الجائزة عليها.

كذلك كان انتقاد الشعر والأدب في ذلك العهد بهذه المنزلة العالية من الاعتبار والاهتمام، وبه راجت به سوق الأدب وصفا جوهر الشعر.

ثم إنك إذا التفت إلى حال الغربيين اليوم وجدت الانتقاد عندهم أنفع الآلات لتقدم العلوم والفنون وارتقاء المخترعات والمبتدعات، فلا تخلو جريدة عندهم من عاملين موظفين أو ثلاثة أو أربعة لانتقاد ما يكون له قيمة من تأليف أو تصنيف أو ابتكار أو ابتداع حتى أن المؤلف الذى لا ينتقد تأليفه منتقد منهم يعد نفسه ساقط المنزلة بين أقرانه.

ومن نكد الدنيا على الأدب فى مصر أن أرباب الجرائد فيها لم يلتفتوا يوماً إلى هذا العمل النافع، بل جعلوا ديدنهم التغالى وسوء المبالغة في مدح ما يظهر فى الوجود من رسالة كاتب أو قصيدة شاعر أو تأليف أو تعريب معرب، بقطع النظر عما إذا كان ما يمدحون أهلاً للمديح وجديراً بالثناء ونسوا أن هذه العادة ينتج عنها أمران مذمومان: أحدهما أن مدح الرجل فى وجهه- وصفات الجرائد مدح فى الوجه- أمر غير مرضى طالما نهى عنه الناهون، وحذر عنه المحذرون، قال عليه الصلاة والسلام: "إذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى رميضة، وقال صلى الله عليه وسلم: "لو مشى رجل إلى رجل بسيف مرهف كان خيراً له من أن يثنى عليه فى وجهه". وقال أيضاً لرجل مدح رجلاً فى وجهه: " عقرت الرجل عقرك الله"، ووجه الذم لهذا المدح أنه ينشأ عنه الغرور.

ولما كان حضرة الشاعر الأديب أحمد بك شوقى عزيز المنزلة عندنا نحب له التقدم فى الأدب والترقى فى أساليب البلاغة لما نأنسه فيه من الذكاء وحسن الذوق والانطباع الفطرى على محبة الشعر وكنا نتمنى له أن يكون شعره كله لؤلؤاً لا يخالطه حصى،

وذهباً خالصاً لا يشوبه بهرج، وكان الانتقاد- كما قدمنا وكما يعلمه- خير واسطة إلى الإحسان و الإتقان والإجادة والإصابة، لا بدع أن اخترنا معه سلوك هذا السبيل، سبيل الانتقاد، على ديوانه الذى أهدى إلينا نسخة منه عناية به واعترافاً بقدره ولم نفعل به مانفعله بغيره من المطبوعات مما لا يستحق فى نظرنا الانتقاد فلا يكون له نصيب عندنا إلا السكوت عليه، ونحن لانشك أن حضرة الشاعر الفاضل وهو العالم بمزية الانتقاد فى الشرق و الغرب لابد أن يقبل ذلك منا أحسن قبول ويتبع هذه الحكمة البالغة والموعظة الحسنة "أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك".

- ٢ -

قيل لأفلاطون: مالك تعارض سقراط فى أقواله وأنت تحبه؟ قال: أحب سقراط ولكنى أحب الحق أكثر منه؛ وعلى ذلك نبدأ فى ما بدأ لنا الكلام عليه من ديوان حضرة الشاعر الفاضل شوقي بك ونسأل الله أن نكون من الداخلين فيمن استغفر الله لهم فى آخر إعجاب المرء بنفسه واغتراره بمنزلته فيرى كل شيء فى نفسه حسناً ويمتلئ بالباطل اختيالاً وعجباً، قال بعضهم لرجل رآه معجباً بنفسه. يسرنى أن أكون عند الناس مثلك فى نفسك وأن أكون عند نفسى مثلك عند الناس يكون عارفاً بعيوب نفسه كما يعرف الناس عيوب ذلك المعجب بنفسه، وقالت الحكماء: عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله ومن رضى عن نفسه كثر الساخط عليه، ويزيد على ذلك أن الممدوح يعتقد فى نفسه الإحسان والإتقان والإصابة والإجادة فتقعد همته عن العمل، ويكتفى بالدرجة التى وصل إليها متظللاً بظلال ذلك المدح.

ومن كلام عمر رضى الله عنه "المدح هو الذبح" قالوا: لأن المذبوح ينقطع عن الحركة والأعمال، وكذلك الممدوح يفتر عن العمل ويقول قد حصل فى القلوب والنفوس ما أستغنى به عن الحركة والجد، ومن أمثال الحراثين "إذا صار لك صيت بين الحصادة فاكسر منجلك".

وثانى الأمرين المذمومين أن المدح على حسب العادة غش للناس ممن لا يتكلفون تعب الفكر فيما إذا كان العمل يستحق المدح أو لا يستحقه فيعتمدون على أقوال المديح ويغفلون عن قيمة الممدوح فى نفسه وكلا الأمرين تغرير بالناس لا يخفى ما فيه من الضرر على العلوم والآداب.

ختم مقدمته بقوله: "وأنا أستغفر الله لي ولأهلي ولمن ينظر إلى هذا الكتاب بين الكريم المتجاوز أو المنتقد العدل".

صدر الشاعر ديوانه بمقدمة طويلة تكلم فيها عن الشعر وعن نفسه، أما المقدمة من حيث صناعة الإنشاء ومن حيث اللغة فإنها تدل على أنه شاعر لا ناثر وتدل على أنها كانت تحتاج إلى إعادة نظر للتنقيح والتصحيح، ولو أنه كان يحسب للانتقاد حساباً ولم يعتمد على الإطراء والمدح وحده من أولئك الذين يدعون أن الانتقاد مما يثبط الهمة لكان تأملها بنفسه مرة بعد مرة أو كان عرضها على من ينتقدها له، وثقة الإنسان بنفسه مجلبة للخطأ، فإذا نظرت في الصحيفة الأولى وحدها وجدته يقول فيها عن الشعر: "قاله امرؤ القيس واصفاً وحاكياً وضاحكاً وباكياً وناسباً وغازلاً"، والغازل هنا من قولك: غزلت المرأة القطن والكتان وغيرهما- من باب ضرب- غزلاً مدته وفتلته خيطاناً، ولا يكون امرؤ القيس "غازلاً" إلا إذا كان غزل أمراس الكتان في قوله:

فـيالك من لـيل كـأن نجومـه بكل مغار الفتل شـدت بيذبل

كأن الثريا علقت في حصامعها بأمراس كتان إلى صم جـندل

أما إذا كان غرضه الغزل محركاً فلا يأتي اسم الفاعل منه غازلا وإنما يقال رجل متغزل وغزل ككتف وغزيل وقال في الصحيفة نفسها عند كلامه على قصيدة أبي فراس:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر

"ليس إلا عقداً توحد سلكه وتشابهت جواهره ودق نظامه تعاونت فيه ملكة العربي وسليقة الشاعر على حسن الحكاية" وكان الصواب أن يقول (سليقة العربي وملكة الشاعر) لأن الملكة لكل الناس والسليقة للعربي خاصة، قال شعراؤهم:

ولست بنحوي يلوك لسانه ولكن سليقي أقول فأعرب

وفي الصحيفة نفسها خطأة من حيث التاريخ إذ قال: "أما بعد فما زال الشعر معقوداً لأمراء العرب وأشرافهم"، وأمر اء العرب وأشرافهم كانوا بمعزل عن نظم الشعر وكانوا يأنفون من قوله ويعدونه غير لائق بمقامتهم" وحكاية حجر مشهورة"، وهي أنه غضب على ابنه امرئ القيس لما سمع أنه ينظم الشعر فأمر خادماً له يذهب به ليقتله

ويأتيه بعينيه أمارة على قتله فرحم الخادم الغلام فدسه فى جبل ورجع إلى مولاه بعيني ظبي.

وأما ما ينقل عن علي عليه السلام من تلك الأشعار فمكذوب عليه.

هذا من حيث اللغة والتاريخ في صحيفة واحدة وأما من حيث الكلام عن الشعر فإنك تراه في المقدمة مضطرباً متناقضاً فتارة يرفع الشعر العربي إلى درجة عالية كقوله:

"وكان أبو العلاء المعرى يصوغ الحقائق في شعره ويوعى تجارب الحياة في منظومه ويشرح حالة النفس ويكاد ينال سريرتها ومن تأمل قوله من قصيدة:

فلا هطلت علي ولا بأرضي   سحائب ليس تنتظم البلادا

وقابل بين هذا البيت وبين قول أبي فراس:

معللتي بالوصل والموت دونه   إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر

ثم نزل إلى الأول كيف شرع سنة الإيثار وبالغ في إظهار رقة النفس للنفس وانعطاف الجنس نحو الجنس، وإلى الثاني كيف وضع مبدأ الأثرة وغالى بالنفس ورأى لها الاختصاص بالمنفعة في هذه الدنيا تعيش فيها جافية ثم تخرج منها غير آسية، علم أن شعراء العرب حكماء لم تعزب عنهم الحقائق الكبرى ولم يفتهم تقرير المبادئ العالية وأنهم أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان وإظهارها في أجلى وأجمل صور البيان".

وتارة ينزل بالشعر العربي إلى أدنى دركه فيقول:

"إني قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم، ولا أجد أمامي غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء، والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحاً في مقام عال".

ثم قال في موضع آخر عن الشعراء حتى عن آخر المتأخرين

"وإلا فمن دواوينهم ما يخلق أن يكون المثال المحتذى في شعراء الأمم كابن الأحنف مرسل الشعر كتباً في الهوى و رسائل، ومتخذه رسلاً في الهوى ووسائل، وكابن خفاجة شاعر ومجنون ليلاها وواصف بدائعها وحلاها، وكالبهاء زهير سيد من ضحك في

القول وبكى، وأفصح من عتب على الأحبة واشتكى، وحسبك أنه لو اجتمع ألف شاعر يعززهم ألف ناثر على أن يحلوا شعر البهاء أو يأتوا بفنه فى سهولته لانصرفوا عنه وهو كما هو".

ومن كان نظره فى البهاء زهير ورأيه فيه هكذا كيف رأيه فى فحول الشعراء كمسلم بن الوليد، وأبى تمام، والبحترى، وابن الرومي والأرجاني، ثم هو بعد ذلك ينزل بالشعر العربى إلى أن يقول:

"ثم طلبت العلم فى أوروبا فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم وعلمت أنى مسؤول عن تلك الهبة التى يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه وأنى لا أؤدى شكرها حتى أشاطر الناس خيراتها، وإذ كنت أعتقد أن الأوهام إذا تمكنت من أمة كانت لباغي إبادتها كالأفعوان لايطاق لقاؤه ويؤخذ من خلف بأطراف البنان، جعلت أبعث بقصائد المديح من أوروبا مملوءة من جديد المعاني وحديث الأساليب بقدر الإمكان".

ومعنى هذا أنه وجد نور السبيل إلى الشعر العربى فى أوروبا من أول يوم وأنه وجد فى مصر أوهاماً كالثعبان لا يؤخذ إلا بالحيلة فاحتال عليه بقصائده على الأسلوب العربى الأوروبى الجديد لإبادة تلك الأوهام التى تمكنت من الأمة العربية وهذا أغرب ما روى لأن الشعر ألفاظ ومعان فالرجوع إلى العربية، والأخذ عن أهلها واجب من جهة الألفاظ أما من جهة المعانى فقد طالعنا ما قدرنا على مطالعته من شعر الغربيين فلم نجدهم أطول باعاً من الشرقيين في المعاني، بل الشرقيون يفوقونهم فيها وهم إلى الآن لا يزالون فى المعانى عيالاً على اليونانيين والفرس والعرب ينتحلونها ويزينون بها أشعارهم، وأما من جهة المواضيع الشعرية والتغنى بالطبيعة ووصف الكون بما يثير إليه فى مقدمته فهو نفسه يشهد: "إلى شعراء العرب حكماء لم تغرب عنهم الحقائق الكبر ولم يفتهم تقرير المبادئ العالية وأنهم أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان وإظهارها فى أجلى وأجمل بيان" وقد قال شعراء الشرق ما قالوا فى هذه الأبواب فما على الشاعر الجديد إلا أن يتصفح دواوينهم فيجد فيها ضالته التى ينشدها، فإن رآهم فاتهم شيء أو أغفلوا باباً فى الشعر لم يفتحوه فليقرعه وليتحف به أهل زمانه والكون والطبيعة أمامه في كل زمان ومكان وهو فى غنى عن التطوح بالشعر إلى أرض أوروبا ليستنير بنور هداها ويحتذى الصراط المستقيم بها.

هذا ما رأيناه فى القسم الأول من مقدمة الديوان وسنتبعه بما نراه فى القسم الثانى الذى خصصه الشاعر الفاضل للكلام عن نفسه ونحن لا نشك فى أنه يحمل من كلامنا فى هذا الباب على أحسن محمل فما غرضنا إلا خدمته وخدمة الأدب معه، وهو للأدب خير مساعد ومعين.

- ٣ -

من الأقوال المأثورة "أعوذ بالله من قولة أنا"!

و"إذا أردت أن يُثنى عليك فلا تثن على نفسك".

سلك الشاعر الفاضل فى مقدمته فى الكلام على نفسه مسلكاً لم تسلكه الشعراء من قبله فى دواوينهم، بل كانوا يتركون لغيرهم الكلام عنهم وغاية ما رأيناه من المؤلفين للكتب العربية أنهم إذا أرادوا الكلام على أنفسهم فلا يتكلمون إلا عن أصولهم فى الأدب لا عن أصولهم فى النسب، فيذكر الواحد منهم ممن أخذ وعمن تلقى وعلى من قرأ وماذا حفظ، أما الشاعر الفاضل فقد ذكر لنفسه أصولاً أربعة في النسب ولم يذكر له أصلاً وأحداً فى الأدب إذ قال: "أنا إذا عربى تركى يونانى جركسى بجدتى لأبى .. ! أصول أربعة: فى فرع مجتمعة".

ليس على الله بمستنكر　　أن يجمع العالم فى واحد

وكل من قرأ كلامه فى مقدمته يراه يدور على أربعة أشياء: الزهو، والسهو، والحشو، وسلامة النية.

فمن قوله فى الزهو: " معذرتى إلى الفريق الأول أن من يعرض صورته على الناس كمن يعرض وجهه عليهم وأعوذ بالله وبالمحبين أن أكون ذلك الرجل، على أن صورتى ما عشت بينهم ينظرون إليها فإذا مت فليأخذوها من أهلى إذا جد بهم الحرص عليها، وللآخرين أقول إنى لا أزال فى أول النشأة وإن حياتى لم تحفل بعد بالعجائب ولم تمتلئ من الفوائد ولا المصائب حتى أحدث الناس بأخبارها لكنى لا أثق بيومى الآتى وأخاف بعدى وجوم الظن وضلات الأحاديث"...

هذا هو الزهو المضاعف وصور الملوك كما لا يخفاه فى أيدى الناس وصور العلماء والشعراء فى هذا العصر فى صدور كتبهم ودواوينهم وتكهنه بحرص الناس على صورته بعد موته من ذلك الزهو أيضاً.

ومن قوله في هذا الباب في ذكر جده وجدته "حتى توفى جدى وهو وكيل الخاصة الخديوى إسماعيل باشا فأمر بنقل مرتبه برمته إلى أرملته وأن يحسب ذلك معاشاً لا إحسانا "وقوله حاكياً عن نفسه في المدرسة التجهيزية" فكنت التلميذ الثانى لهذه المدرسة وأنا في الخامسة عشرة وكان ناظرها المرحوم صادق باشا شنن قد حصل لى من النظارة على المجانية بوجه الاستثناء لا عن حاجة إليها".

ومن الزهو أيضاً قوله"أخذتنى جدتى لأمى من المهد وهى التى أرثيها في هذه المجموعة وكانت منعمة موسرة فكفلتنى لوالدى وكانت تحنو على فوق حنوهما وترى لى في البر مرجوة، حدثتنى أنها دخلت بى على الخديوى إسماعيل وأنا في الثالثة من عمرى وكان بصرى لاينزل من السماء لاختلال أعصابه فطلب الخديوى درة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعتُ على الذهب اشتغل بجمعه واللعب به فقال لجدتى: اصنعى معه مثل هذا فإنه لا يلبث أن يعيد النظر إلى الأرض، قالت: هذا دواء لا يخرج إلا من صيدلتك يامولاى.قال: جئى به إلى متى شئت، إنى آخر من ينثر الذهب في مصر"!!

من كان طبيب عينيه إسماعيل وصيدلته خزائن مصر وهو في الثالثة من عمره لأبدع إذا كان الزهو ترب صباه ورفيق حياته!

وختام باب الزهو قوله عند الكلام على وفاة أبيه:"كانت وفاة والدى على نحو ثلاث سنوات فكان لى عجباً أن وجدت بين أوراقه شيئاً كثيراً من مشتت منظومى ومنثورى، مانشر منها ومالم ينشر" قد كتب بعضه بالحبر والبعض الآخر بالرصاص والكل خط يد المرحوم وقد لفه في ورقه كتبت عليها هذه العبارة: "هذا ماتيسر لى جمعه من أقوال ولدى أحمد وهو يطلب العلم في أوروبا فكنت كأنى أراه، وإنى آمره أن يجمعه ثم ينشره للناس لأنه لا يجد بعدى من يعنى بشؤونه وربما لايوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب"!

على هذا فالشاعر في رأى أبيه خاتم الشعراء والأدباء!

ومن باب السهو عن حسن التعبير قوله عن أبيه في مناقب جده "ثم تداولت الأيام وتعاقب الولاة الفخام، وهو يتقلد المراتب العالية ويتقلب في المناصب السامية، إلى أن أقامه سعيد أميناً للكمارك المصرية، فكانت وفاته في هذا العمل عن ثروة راضية بددها أبى في (سكرة الشباب) ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم وعشت في ظله وأنا واحده

أسمع بما كان من سعة رزقه ولا أراني في ضيق حتى أندب تلك السعة فكأنه رأى لي كما رأى لنفسه من قبل أن لا أقتات من فضلات الموتى".

سكرة الشباب بإزاء ضياع المال من والده سهو عن حسن التعبير، كان يجل أدبه عنه، وتعبيره عن الإرث بفضلات الموتى سهو أيضاً عن حسن التعبير يعز سماعه على الوراثين لأن الإرث رزق من أطهر الأرزاق منذ خلق الله آدم فلا يقال لغنى ورث مالاً ولا لملك ورث ملكاً: أنه يقتات من فضلات الموتى.

ومن هذا الباب قوله عند ذكر جده وجدته" وكان الخديوى المشار إليه (إسماعيل) يقول عنهما لم أر أعف منه ولا أقنع من زوجته ولو لم يسمه أبى حليماً لحلمه لسميته عفيفاً لعفته".

السهو في التعبير هنا لا يغتفر للأديب .. سأل أحد الأمراء أديباً فقال أينا أكبر؟ فقال له الأديب: حضرت زفاف أمك المباركة على أبيك الطيب، هنا تحرز الشاعر من خطابه أنا أكبر منك أولاً وتحرز ثانياً فلم يقل أمك الطيبة بل هرب منها إلى ماهو أليق بالأدب.

ومن باب السهو في التعبير قوله عن المغفور له توفيق باشا "فتحلى الحليم بصورة الغضب" وليس الغضب حلية يتحلى بها، ومنه قوله عند تبشير المرحوم توفيق باشا له بتعيين أبيه مفتشاً في الخاصة الخديوية الوعد بتعيينه هو أيضاً "ثم مد إليَّ العزيز يده فقبلتها واجماً، وقد غلب على السرور حتى أنساني الشعر، وكان ذلك وقته".

التعبير بالواجم هنا في غير موضعه تقول وجم الرجل وجوماً سكت على غيظ، وقيل: سكت وعجز عن التكلم من كثرة الغم والخوف" والواجم العبوس المطرق لشدة الحزن، يقال: مالي أراك واقفاً واجماً وهو واجم ودمعه ساجم.

ومن باب سلامة النية مايحكيه عن المرحوم الشيخ على الليثى من قصة المنام والخرق في الإسلام! قال:" حدثني سيد ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ على الليثى قال: لقيت أباك وأنت حمل لم توضع بعد فقص على حلماً رآه في نومه فقلت له وأنا أمازحه ليولدن لك ولد يخرق كما تقول العامة خرقاً في الإسلام، ثم اتفق أنى عدت الشيخ

فى مرض الموت وكانت فى يده نسخة من جريدة الأهرام، فابتدرخطابى يقول هذا تأويل رؤيا أبيك يا شوقى فوالله ما قالها قبل فى الإسلام أحد، قلت: وما تلك يامولاى؟ قال: قصيدتك فى وصف (البال) التى تقول فى مطلعها:

حف كأسها الحبب   فهى فضة ذهب

وكل من عرف المرحوم الشيخ على الليثى وما كان عليه من الميل إلى إرسال النكات المتظرفة أدرك لأول وهلة موضع النكتة فى مسألة الخرق فى هذه القصيدة المتفرتجة ولو كان غرضه غير التنكيت قال (لم يقل مثلها الشعراء) ولم يقل (لم يقل أحد فى الإسلام) فحملها الشاعر الفاضل بسلامة نيته محمل التقريظ والإطراء.

ومما يدخل فى هذا الباب مانقله عن المرحوم الشيخ على الليثى أيضاً عند تكلمه على اختلال أعصاب بصره" وكان المرحوم الشيخ على الليثى كلما التقت عينه بعينى ينشد هذا المصراع للمتنبى:

محاجر مسك ركبت فوق زئبق

وأما الحشو فى كلامه فنذكر منه شيئاً يدل عليه فمن ذلك قوله عند ذكر استدعاء المرحوم توفيق باشا له من ساحة عابدين "فخرجت قبيل الأصيل فى حاجة لى على حمار أبيض كان لوالدى".

ومن قوله عند الكلام عن دراسته فى باريس: "أصبت بمرض شديد كنت فيه بين الحياة والموت فاستخدمت ممرضة تسهر على وتعمل بإشارتى فى الحركة والسكنة فكنت أسمعها وأنا فى سكرات الحمى تقول: أفى مثل هذا الشباب تذهبون؟ ثم تكفكف الدمع لكن الله خيب ظنونها ومن على بالشفاء".

ومن أمثال هذا الحشو كثير مما لا ينتفع به القارئ ولا يستفيد منه السامع ويضيق بنا المقام عن سرده، وقد آن لنا أن ننتهى من نقد المقدمة ونبتدئ بنقد الشعر وموعدنا الأعداد الآتية.

— ٤ —

اختفت عادة الانتقاد للكتب عن الناس وألفت أذهانهم التقريظ مدحاً وإطراء، فصار الانتقاد مهجوراً بينهم غريباً فيهم حتى ظنوه ذاماً وحسبوه عابا، ولما وضعنا

ديوان حضرة الشاعر الفاضل شوقى بك موضع العناية والاهتمام به وشرعنا فى انتقاده قياماً بخدمة الأدب على عادة الجرائد الغربية فى هذا الباب وهم الناس فى أننا قصدنا ذلك من وجه التحامل، ولقد أخطأوا فى وهمهم فإن صحبتنا مع هذا الصاحب الفاضل لم تزل على ما كانت عليه من الصفاء ولم يؤثر عليها الانتقاد شيئاً لعلمه ولعلمنا بأن الانتقاد دائر على ما قيل لا على من قال، ولذلك استغربنا قيام من قام للرد علينا مستتر الاسم تحت الألف والراء فكدنا نسيء الظن بصاحبنا وهممنا بالرد عليه لولا أن جمعنا وإياه مجلس، فسألناه عن ذلك الكاتب فتبين لنا من أنه لم يكن يعرفه وأنه لا يقول بقوله وأن ماكتبه كان على غير علم منه وأنه لايزال يقدر الانتقاد قدره ويحمله على حسن الاهتمام بديوانه، فمن أجل هذا عدلنا عن الرد على النقد وطرحناه فى جانب المسامحة والإغضاء كما جرت عليه عادتنا مع من يتهافت علينا ويتحرش بنا، لأننا لانرى فى الكلام معه من فائدة للقراء بل نجد من الحكمة أن تمر باللغو مرور الكرام تأدباً بأدب القرآن الكريم فى قوله عز وجل (وإذا مروا باللغو مروا كراماً).

والآن نأخذ في نقد الشعر سائلين حضرة الشاعر الفاضل أن يكون دائم الاعتقاد فى محض نصحنا وصفاء مودتنا وأن لا يحمل شيئاً من كلامنا محمل السوء وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه" لاتظنن بكلمة تخرج من أخيك المسلم سوءً وأنت تجد لها فى الخير مجملاً".

قال حضرة الشاعر الفاضل فى أول الديوان من باب (الأدب والمديح)

خدعوها بقولهم حسناء والغوانى يغرهن الثناء

قوله خدعوها يفهم منه أن المشبب بها غير حسناء لأن الخداع لا يكون بالحقيقة وإذا أردت أن تخدع الشوهاء فقل لها حسناء، وهو ينافى قوله فى البيت:

ماتراها تناست اسمى لما كثرت فى غرامها الأسماء

وخدعوها بمعنى ختلوها وأرادوا بها المكروه من حيث لا نعلمه ويعجبنا من هذه القصيدة قوله

يوم كنا ولا تسل كيف كنا نتهادى من الهوى ما نشاء

وعلينا مــــن العفاف رقــيب   تعبــت فى مراســه الأهــواء

جاذبتــى ثوبى العصى وقالت   أنتم الناس أيــها الشعـــــراء

فاتقوا الله فى خداع العذارى   فالعــــذارى قلوبهــن هواء

وهذا من بديع الكلام وجيد الشعر،

ومما نعده من محاسنه ونراه من المعانى المبتكرة:

سعت لك صورتى وأتاك شخصى   وســار الظـل نحـوك والجـهات

لأن الـــروح عنــك وهـــى أصـل   وحيث الأصل تسعى الملحــقات

وهبهـــا صـــورة مـــن غـــير روح   أليـــس من القـــبول لها حـــياة

ومما نعيبه عليه قوله من أبيات:

وقطعة خد بينما هى جنة   لعينيك يارائى إذا هى نار

لأن القطعة بغير الخد أنسب، ولو قال صفحة خد لكان التعبير أحسن وأجمل.

أما بقية الأبيات فهى من رائق الشعر ورقيقه وهى:

إذا بـرزت ود النـهار قميصها   يغير به شمس الضحى فتغـار

وإن نهضت للمثنى ود قوامها   نســـاء طوال حولهـا وقصـار

لها مبسم عاش العقيق لأجله   وعاشت لآلٍ فى العقيق صغار

ومما يفتقد عليه قوله فى أبيات :

وكل ذى همة شريف   يقوم للخلق بالخدامة

لأن لفظة "خدامة" ليست من اللغة العربية فى شىء.

قال حضرة الشاعر الفاضل شوقى بك من قصيدة فى باب الوصف بن ديوانه يصف ليلة راقصة فى سراى عابدين:

أقبلت شموس ضحى ما لهن منتقب

الظلام رايتها وهى جيشه اللجب

تشبيه الظلام بالراية لهذا الجيش اللطيف جيش شموس الضحى لا مناسبة له إلا إذا أراد أن يشبه بجيش خراسانى يقوده أبو مسلم تحت الراية السوداء، والعجب لهذه الشموس المسفرة التى ليس لها تنقب كيف أنها لم تمزق هذه الراية.

وقال منها فى وصف العزيز:

فهو بينهم عمر والوفود تنتدب

تشبيه العزيز بعمر رضى الله تعالى عنه فى هذا المجلس مجلس الطرب والعزف والرقص والقصف والقدود والخدود والصدور والنهود والنحور والعقود غير لائق بالمقام إلا إذا أراد الشاعر بعمر عمر ابن أبى ربيعة!

وقال منها:

فهى آنة صعد وهى آنة صبب

لايقال فى اللغة "آنة" بل يقال "آونة" وهى جمع "الأوان"

أو الوقت والحين يقال هو يفعل ذلك آونة، وأنا آتيه آونة بعد آونة.

ومن قوله بعد أن وصف المائدة "البوفيه":

والطعام حاضره والمزيد ملتهب

بارد ومن عجب يشتهى ويطلب

كذا البيت وليس من العجب أن يشتهى البارد ويطلب.

وقال منها:

والخصور واهية بالبنان تنجذب

سالت الأكف بها فهى أغصن نهب

الغصن لا يجمع فى اللغة إلا على غصون وغصنة وأغصان، ومطلع هذه القصيدة من المطالع البديعة وهو:

حف كأسها الحبب   فهى فضة ذهب

ومن محاسنه فيها قوله فى الخمر:

راحة النفوس وهل   عـــند راحة تعب

يا نديم خـــف بها   لا كبا بك الطرب

ومن المحاسن أيضاً قوله:

تنجلى ولى خلق   ينجلى   وينسكب

ومنها فى وصف "السراى" :

أشـــرقت نوافـــذه   فهـــى منـــظر عجب

واســـتنار رفـــرفه   والسجوف والحجـب

تعجـب العـــيون له   كيف تسكن الشهـب

جوهر الشعر[١]

تمضى القرون والدهور والناس يقولون الشعر وينشدونه ويسمعونه ويشرحونه وينقدونه، وهم مذاهب شتى فى تعريفه، فإذا بحث الباحث فى أقوالهم لم يقف منها على تعريف للشعر ترتاح إليه نفسه، والباحثون المدققون ينظرون إلى الشعر وتأثير وقعه فى النفس من وجهين من حيث هو كلام موزون ومن حيث هو حالة من حالات النفس.

أما الوزن فهو تأليف عدة أصوات على نمط تحس بها الأذن صوتاً أثر صوت حتى إذا أنت على الأخير منها تذكرت أولها، واستخلصت من هذا التأليف وحدة تلتقطها دفعة واحدة وهو فى تأليف الأصوات لحاسة الأذن مماثل التعادل والتوافق بين أشكال الأجاسم لحاسة البصر، فالبيت الموزون ظرف موسيقى فى الشعر كقصبة النافخ فى آلات الطرب.

وأما من حيث هو حالة من حالات النفس فنقول إن فى النفس مساحة علوية هى الجمال والبهاء الباطنى تظهر عليها عند صفاء النفس وخلوها من شوائب الأكدار، ولما كان ذلك لاينتابها إلا حيناً بعد حين ظننته شيئاً طارئاً عليها من الخارج؛ فلهذا نسب القدماء تجلى ذلك البهاء والجمال إلى أرواح أخرى تمتزج بالنفس، فكان شعراء اليونانيين الرومانيين يسمونها(الموز Les Muses) ويفسرونها بآلهة الشعر وطالما كانوا يستدعونها عند إرادة قول الشعر وهذا(هومير)، و(أزيوت) و(سيمونيد) و(سفوكل) و(أوريبيد) و(فرجيل) و(لكريس) و(هوارس) كلهم ينادون تلك الآلهة ويستعينون بها على زعمهم فى مطالع قصائدهم كما تراه فى شعرهم.

ومذهب العرب فى أن لكل شاعر شيطاناً يلقى إليه الشعر مذهب مشهور والشعراء كافة عليه، قال بعضهم:

---

(١) نشر هذا المقال تحت عنوان «جملة بعد كلمة فى الشعر» ختاماً لسلسلة مقالات منشورة فى م ش (مناقشات الأدباء) بعد نشر ديوان حافظ إبراهيم.

إنى ولو كنت صغير السن وكـــان فى العـــين نـبو عنى

فإن شيطـانى أمـير الجـــن يذهـب بى فى الشعر كل فن

وقال حسان بن ثابت شاعر النبى صلى الله عليه وسلم:

إذا ما ترعـــرع فـــينا الغـلام فما أن يقـال له من هـــوه

إذا لـــم يســـد قـبل شد الإزار فـــذلك فـينا الذى لاهوه

ولى صاحب من بنى الشيصبان فطوراً أقـول وطـوراً هـوه

وكانوا يزعمون أن اسم شيطان الأعشى (مسحل) واسم شيطان المنجل (عمرو) قال الأعشى:

دعوت خليلى مسحلاً و دعوا لهم جهنام جدعاً للهجين المذمم

وقال آخر:

لقـــد كـان جنى الفـــرزدق قـدوة وما كان فينا مثل فحـل المخـــبل

ولا فى القوافى مثل عمرو وشيخه ولابعد عمرو شاعر مثل مسحل

وقال أبو النجم:

إنى وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

وأنشد بعضهم لبعض الرجال:

إن الشياطين أتونى أربعة فى غلس الليل وفيهم زوبعة

وقال الفرزدق يصف قصيدة له:

كأنها الذهب العقيان حبرها لسان أشعر خلق الله شيطاناً

فـإذا تجلى الروح فى الإنسان وصفت نفسه وكانت ممتلئة من قبل بأطراف المعارف والفنون مطلعة على التواريخ والحوادث والقصص والمحاضرات والنكات وبدائع المشاهد الطبيعية والصناعية لها من التجارب نصيب وافر، وكان لها وقوف على مختلف

الطباع والأخلاق فاضت منها المعاني البديعة فإذا وضعها في الألفاظ المحكمة التي لاتطول المعنى ولاتقصر عنه فأفرغها في قالب الوزن اجتمع حسن المعنى مع انسجام اللفظ في انسجام الوزن فذلك هو بيت الشعر.

والشعر هو إظهار ما خفي من الحقائق المعنوية وتوضيحها للسامع يجليها عليه بوجوه مختلفة، وتجديد ما أخلق تكرار النظر إليه بهاءه من الموجودات كما قال امرؤ القيس في وصف الأسنة التي يراها الإنسان كل ساعة *ومسنونة زرق كأنياب أغوال* فكساها كساء قشيبا من التأثير وجعل لبهائها في النفس سلطاناً جديداً، ولو خيرت الحقيقة أن تشرف على الناس من أجمل مكان لما اختارت إلا أن تشرف عليهم من بيت الشعر:

الحسن يظهر في شيئين رونقه　　　بيت من الشعر أو بيت من الشعر

وعلى ذلك فالشعر موجود في غريزة كل إنسان وكل إنسان شاعر وليس كل ناظم شاعراً، ويوجد الشعر في المنثور كما يوجد في المنظوم إذا نشأ عنه تأثير في النفس ومثل ذلك ما نراه من الشعر في كلام البدوي وقد سئل عن مقدار غرامه بصاحبته فقال (إني لأرى القمر على جدارها أحسن منه على جدران الناس)، وكقول الآخر (مازلت أريها القمر حتى إذا غاب أرتنيه) كما تراه في قصة محمود الغزنوي وقد فتح بلداً فجاء أهلها يطلبون منه أن لا يكسر أصنامهم وعرضوا عليه مالاً عظيما فاستشار بعض خاصته فأشاروا عليه أن يبيعها منهم إلا واحداً قال له: (أتريد أن يقال بعدك إن ابراهيم عليه السلام كاسر الأصنام ومحمود بائع الأصنام) ففعلت هذه الكلمة في نفسه فعلاً رفض به ما كان محتاجاً إليه من تلك الكنوز التي عرضوها عليه.

ومن الموزون ما ليس بشعر كما نراه في كثير من القصائد التي يقيد فيها أربابها ألفاظاً بقيود الوزن فيضعون ذلك الظرف الموسيقي ما يذهب بحسن انسجامه كما يتوضح ذلك جلياً في أشعار المتون التي ربطوا بها قواعد العلوم بالوزن ليسهل حفظها وسواها من نظم الشعراء الذين لم يكمل الاستعداد في نفوسهم لسلطان الشعر.

كلمة مفروضة

لحضرة الفاضل الكاتب الشهيد

محمد بك المويلحى

دانتى أليجيرى شاعر إيطالى من أصل القرن الثالث عشر للمسيح، وله كتاب شعر اسمه "الرواية المقدسة أو الآلهية" بناه على التغزل فى هوى فتاة يعشقها فى الدنيا ويروم أن يراها فى الآخرة وهو يرمز بها إلى الديانة المسيحية حيث تتنعم فى رياض الجنة فارتفع به الخيال إلى دار الباقية فى صحبة شاعر رومانى قديم اسمه "فرجيل" ليهديه إلى طريق الجنة ولا وصول إلى الجنة إلا بعد اختراق الجحيم ثم الأعراف، فبدأ فى شعره بوصف جهنم طبقة طبقة وجعلها تسع طبقات وقسم كل طبقة إلى عدة أودية وشهد بما استطاعت مخيلته أن تتخيله مايراه الناظر هناك من أنواع العذاب الأليم، ووضع فى كل طبقة جماعة من أهل الذنب زعمه من أعدائه فى زمانه ورجال التاريخ وجعل فى الوادى الأول من الطبقة الأولى كل من مات قبل أن يتعمد بالنصرانية، ومازال على هذا النمط فى شعره يصف كل طبقة فى العذاب بأشد مما قبلها حتى وصل إلى الطبقة الثامنة من أسفل الطبقات فقال فى وصف الوادى التاسع منها ماهذه ترجمته

"أيُّ خيال يتسع وأى تصور يتمكن ان يحيط بوصف ما فى هذا الوادى من منظر العذاب الأليم لو جمعنا كل وقائع الحروب التى وقعت فى العالم بأهوالها ودمائها وأشلائها وعظامها وجروحها لما كانت شيئاً يذكر فى جانب المنظر الفظيع، وقد رأيت فى وسط هذا الوادى رجلا واقفاً فى العذاب وبطنه مبقورة وأحشاؤه ظاهرة والقلب يتحرك فيها بحركته وأمعاؤه متساقطة على ركبته يتساقط منها ما ينتهى إليه الطعام فوقفت أتأمل فيه وأتعجب فنظر إلى وهو يمزق أحشاؤه بيديه وقال لى: انظر كيف أمزق نفسى انظر إلى محمد (يعنى محمد رسول الله كبرت كلمة تخرج من أفواههم) كيف يتقطع ويتمزق وانظر إلى علىّ يسكب الدموع أمامى ووجهه مشجوج من ذقنه إلى جمجمته، وانظر إلى بقية أصحابى فى مثل هذا العذاب جزاء ما اقترفناه فى الدنيا من الفتنة والتمزيق والتفريق بين العالم، وانظر إلى هذا الشيطان من ورائنا يطعننا بسيفه كلما

أتممنا دورتنا في وادي البكاء والأحزان والتأمت جراحنا ليعيدها إلى ما كانت عليه ولي عندك حاجة أطلب منك قضاءها إذا عدت إلى الدنيا وهي أن تقول للقائم "فرادولشينو" أن يتحصن من أعدائه ما استطاع حتى لا يغلب إلخ".

وفرادولشينو هذا رجل قائم يدعو في إيطاليا بإباحة النساء والأموال بين الناس وأهل إيطاليا لا يكتفون بالوصف في هذا الكتاب المقدس عندهم بل يبرزون الوصف إلى العيان بالرسوم والصور الملونة والملولة عند طبعه ولي ضمن الرسوم رسم هذا الوصف.

ما رزئ الإسلام ولا أهين الدين في شخص محمد سيد العرب والعجم وخاتم الأنبياء والرسل منذ بدء الإسلام من أهل الشرق والكفر في الجاهلية، وما لقيه عليه الصلاة والسلام من سفهاء ثقيف حين ألجأوه بالحجارة والطرد الى حائط عقبة بن ربيعة، وما لقيه من ابن شهاب حين شج جبهته ، ومن عقبة بن أبي وقاص حين اشظى رباعيته، ومن ابن قضة حين أدمى وجنتيه، بمثل ما أهين الإسلام في هذه الأيام بقرار المجلس البلدي لإقامة تمثال لهذا الشاعر المأفون فوق أرض إسكندرية، ذاك كان في أول الدعوة للإسلام والناس في جاهليتهم الجهالة والكفر عام والشرك منبسط والإسلام ذليل ضئيل لا ناصر له ولا معين، قام بعد أن انبسط الإسلام في البسيط ثلاثة عشر قرناً في عزه وسلطانه ويدين به اليوم ثلثمائة مليون من النفوس، فإن إقامة التمثال لهذا الشاعر على رؤوس تسعة ملايين من سكان القطر المصري لا يذكرون اسم محمد إلا بعليه الصلاة والسلام تعد أكبر إهانة يجوز أن تجول في التصور وتخطر في الخيال للإسلام والمسلمين منذ أرسل الله نبيه إلى يوم الدين.

كيف لا يدمي المسلم عينه بالبكاء ويخمش وجهه بالدم ويرسل أنفاسه بالزفرات ويفضل الموت على الحياة، حين يرى مجلساً من مجالس حكومته يقر قراره على إقامة هذا التمثال طوعاً لإشارة بدال أو خمار أو نجار من أهل إيطاليا رمت بهم الفاقة إلى هجرة دياهم، واستيطان البلاد المصرية فأنالتهم دعة المصريين من الثرو ة ما مكنهم اليوم أن يكونوا أهل الحل والعقد في المجالس يأمرون بإقامة التماثيل ويقضون على المسلمين سكان هذه الديار أن يشاهدوا بأعينهم أفانين التشفي والانتقام من دينهم ورسول شرعهم.

ولا نزاع فى أن الغرض الذى يرمى إليه أهل الاقتراح فى المجلس البلدى هو مجرد التشفى والنكاية لاختيارهم هذا الشاعر بعينه وهو من أهل القرون الوسطى دون بقية شعرائهم وكبار رجالهم فى القرون الباقية، وللمعنى الذى تضمنه كتابه فى محمد عليه السلام وإلا فأى مناسبة تقضى بإقامة تمثال لهذا الإيطالى فى ديار لا علاقة لها بالأمة الإيطالية سوى أن جماعة منهم نزلوا الديار المصرية مهاجرين، وما سمعنا أن الأمة الفرنسية لما دخلت مصر بجيوشها أقامت لفولتير تمثالاً، ولا الأمة الانكليزية لما احتلت هذا القطر بجنودها نصبت لشكسبير نصباً، وما استبعد أن جماعة الإيطاليين يقولون اليوم فيما بينهم بعد صدور ذلك القرار إن كان عمر بن الخطاب أمر عند فتح مصر بحرق كتبخانة الإسكندرية على ما يزعمون اكتفاء بكتاب الله، فإننا قد تمكنا بعد ثلاثة عشر قرناً من غير فتح ولا حرب ونحن فى ضيافة المسلمين أن نقيم تمثالاً فوق أرض الإسكندرية، وفى مكان تلك الكتبخانة لشاعرنا وفى يده كتاب الجحيم أمام كتاب الله، ولعلهم يختارون لموضع التمثال أن يكون قبلة مسجد من مساجد الله فإذا نادى المؤذن لا إله إلا الله أشار إليه الشاعر بكتابه وهذه صورة محمد رسول الله.

مضى على هذا القلم عدة سنوات لم يتحرك بحركة فى الجرائد للشؤون العامة اكتفاء بمن يقوم مقامه فيها، وقد انتظرت بعد قراءة خبر التمثال فى الجرائد أياماً، فلم أجد من أرباب الأقلام من انبرى للكلام فى هذا الشأن سوى ما كتبه كاتب إنكليزى فى جريدة الإجبشان غازيت استحساناً لاعتراض سليمان بك العبائى على هذا القرار فى المجلس من جهة أن إقامة التمثال على الإطلاق مخالفة للدين الإسلامى.

ولو كان هماً واحدا لاحتملته ولكنه هم وثان وثالث ورأيت من الواجب المحتم علىّ أن أبين ما خفى على الناس من أمر هذا الشاعر، وأتقدم إلى من ينتمى إلى الدين الإسلامى عامة وإلى من ينتمى من الأشراف إلى البيت النبوى خاصة أن يطلبوا من الحكومة صدور الأمر بإلغاء ذلك القرار وحرقه من بين أوراق المجلس، وتوبيخ الذين وافقوا بالاقتراع وإلا فقد حانت الهجرة ووجب الرحيل عن ديار تقام فيها هذه التماثيل.



صوت من العزلة(١)

يجوز للإنسان أن يتخير العزلة معاشاً ويتجنب الأمور العامة بتاتاً ويطلق السياسة ثلاثًا ويهجر الصحافة أعواماً، خصوصًا إذا كان الميدان خصام وشقاق واختلاف في الأهواء وتباين في الأغراض وتنافر المقاصد وفساد في النية وخبث في الطوية مما يحبب في التباعد عنه وينفِّر عن الإنغماس فيه.

ولكن لايجوز للإنسان مطلقًا أن يقيم على الظلم ويسكن إلى الغيم ويرضى بالذل ويصبر على العنف ويصبح مهدداً في حريته مثلما في معيشته متخوفاً على نفسه وأهله غير آمن في ثوبه.

واحتمل الأذى ورؤية جانب منه غذاء تقوى به الأجسام وحينئذ فلا خير في العيش ولا حظ في الحياة، وقد نزلت بمصر الطامة الكبرى والمصيبة العظمى فارتفع حكم القانون وانبسط حكم الهوى، وانبرى حكم السلطة العرفية بأمر، ولا راد لأمره ولا معقب لحكمه يتصرف بما يشاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون إلا أنهم يبعدون ويسجنون وهم لايسألون.

فوجب على كل مصرى فى هذا الحال أن يهب من رقاده وينتفض من مكانه وليس لعين لم يفض ماؤها عذر ليضع يده فى يد أخيه وكتفه فى كتفه فيتعاونوا جميعاً على ثبات الموقف واحتمال النازلة مما يجب لها من التصبر والتجلد.

اليوم لا رئيس ولا مرؤوس ولا سعد ولا عدلى ولا أحزاب ولا فرق ولا مشارب ولا مذاهب ولا معاهدات ولا مفاوضات ولا مناقشات ولا محاولة ولا محل لأى سبب من أسباب التفرق والتوزع، فكل مصرى رئيس نفسه وصاحب أمره وخادم أمته يعمل بعمل فى حيزه ليكون المصريون كلهم فى حيزٍ واحد، ويكون الفرد كانه أمة والأمة كأنها فرد وليس فى الدنيا خير مطلق ولا شر مطلق، وقد يتولد الخير من الشر وتنبلج النعمة من خلال النقمة.

---

(١) جريدة «الأهرام» ٣٠ ديسمبر ١٩٢١ .

قال الله تعال "وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيرا كثيراً" والحمد لله الذى سخر لنا هذه النازلة ما زال بها أسباب الخصام والشقاق وأحل محلها أواصر الائتلاف والوفاق، بعد أن استعصى العلاج وعز الدواء واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً».

اليوم هو فى تاريخ الأمة المصرية يوم عيد وإن كانت التحف فيه من النار والحديد وكانت المآتم فى مقام الولائم والمنادب فى مكان المآدب.

اليوم يوم يبتسم فيه السيد جمال الدين فى قبره ابتسامة الوضاء والاغتباط إذ يرى المصريين جميعاً على كلمة واحدة وفى اتحاد متين فإنه رحمه الله لم يقل كلمته المشهورة "اتفق المصريون على أن لا يتفقوا" إلا من باب التعبير لا من باب التقرير ومن وجهة التقريع لا من وجهة التشنيع ليستثير بها الهمم ويستنفر العزائم وهنيئًا له بعد طول الزمن فقد طاب الزرع وأينع الثمر و نضجت الفكرة وتكونت الصورة.

ولنعلم جميعاً أن حفظ الشىء أصعب من نيله ودوام الاتحاد أعظم كلفة من الوصول إليه، فلنبذل جهد النفس كله فى المحافظة على جمال هذه الحال وجلال هذا الموقف وألا ندع يداً تمتد إليه ولا رأساً ترتفع أمامه ولا دسيسة تدب فيه ولا حديقة تتسرب نحوه، وهذا هو الواجب على أرباب الأقلام خاصة أن يتعدوا له ويقوموا عليه وأن يرشوا من أقلامهم سهاماً ليقذفوا بها كل مارق ويصيبوا بها كل عابث، ويعدوا لكل من يحاول مثل ذلك- حتى لا نعود إلى ما كنا فيه- مايعد للأفعى إذا أطلت من وكرها وللعقرب إذا ثالت بذنبها، فإذا تم لنا ثبات الموقف على هذا من الاتحاد والوئام لم يلبث صاحب القوة أن يكل ويمل وينشلم فى يده سيف الجور ويقل، ولموقف التجلد والثبات تخر له الجبابرة وتخضع أمامه الأكاسرة، والتاريخ أكبر شاهد على أن المظلوم لابد أن ينتصر والظالم لابد أن ينكسر والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه، وقدر الله الغالب فوق كل متغلب ودعوة المظلوم تخترق حجب السماوات العلى وما أصدق شيخ المعرة حيث يقول:

خف دعوة المظلوم فهى سريعة طلعت وجاءت بالعذاب النازل

عــزل الأمـير عن البلاد وماله إلا دعـــاء ضعـيفها من عـازل

هذا مبلغ دعوة الضعيف الواحد فما بالك أربعة عشر مليوناً من النفوس فى نفس واحد كلهم ضعفاء أمام قوة أقوياء بفضل الإجماع على الثبات وعون الحق سبحانه عز وجل والعاقبة للمتقين.

فهرس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٩٧٥٨٦ / ٢٠٠٢

هذه رسالات فى الأخلاق لعلاج النفس ، وطيب العيش، حتى تتسنى لها سعادة الحياة ، لم ننشئها من لدنَّا إنشاء ، ولم نبتدعها من عندنا ابتداعاً، وإنما هى ضوء اقتبسناه من المطالعات فى كتب الأوائل والأواخر من شرقيين وغربيين ، وثمرة مجنية من مشاهدات الزمن وتجارب الأيام، مما جعلناه لنفسنا درساً فى تقويم النفس، عسى أن نكون قد انتفعنا بها شيئاً قليلاً، والقليل فى شفاء النفس كثير ، ولا فضل لنا فيها إلا مثل فضل النحل ، تجنى من أثمار الأشجار وأكمام الأزهار ما تحوله فى بطنها عسلاً وشهداً فيه شفاء للصدور، ونحن نعرضها اليوم على أعين الناس ، عسى أن ينتفعوا إن شاء الله منها بالشىء الكثير ، وليس تقديمنا إياها لهم فى منزلة أوامر الطبيب للمريض ، بل فى منزلة دواء مجرب من مريض إلى مريض ، ومن عاجز مستفيد إلى مستفيد.

الغلاف: هشام نوا...

المجلس الأعلى للثقافة